

الفصل الأول

ابن جني ومكونات شخصيته النقدية

المبحث الأول: ابن جني: حياته ونشأته.

المبحث الثاني: مكونات شخصيته النقدية.

المبحث الأول: ابن جنّي: حياته ونشأته*

* مولده:

في أوائل القرن الرابع الهجريّ، ذلك القرن الأعزّ المحجّل الذي تسنّم فيه العلم والأدب ذُرّاً رفيعة، والذي حظي بكوكبة من فطاحل العلماء وفحول الشعراء ومصاقع الخطباء، فمضى أريج علمهم يسري في الآفاق، يعطرّ العالم الإسلاميّ، ويحتاج ظلّم الجهل الرائن هنا وهناك، فإذا العالم الإسلاميّ شُعلة من الحركة العلمية الدؤوب لها نورها الوضّاح وأريجها الفوّاح.

وفي مدينة الموصّل تلك المدينة المباركة موقعاً وأهلاً وعلماً، والتي وصفها المقدسيّ قائلاً: «بلد جليل، حسن البناء، طيّب الهواء، صحيح الماء، كثير الملوك والمشايخ، لا يخلو من إسناد عالٍ وفقهه مذكور»⁽¹⁾ ولا غرو فلا زالت أصداء مزامير أبي تَمّام تُجَلجل في أنحائها منذ قرنٍ

* رجعت في ترجمة ابن جنّي إلى المصادر الآتية ثم صُدِّغَتْها بأسلوب: يتيمة الدهر: 89 / 1، شذرات الذهب: 3 / 140، وفيات الأعيان: 3 / 246، نزهة الألباء؛ ص 244، تاريخ بغداد: 11 / 311، معجم الأدباء: 3 / 461، دمية القصر: 3 / 1481، الإكمال؛ لابن ماكولا: 2 / 585، اللباب في تهذيب الأنساب: 1 / 299، الكامل في التاريخ: 9 / 179، المنتظم؛ لابن الجوزي: 15 / 33، إنباه الرواة: 2 / 335، الفهرست؛ ص 128، سير أعلام النبلاء: 17 / 17، تاريخ الإسلام (وفيات عام 392 هـ)؛ ص 270، دول الإسلام: 1 / 236، المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء): 2 / 136، إشارة التعيين؛ ص 200، طبقات النحاة واللغويين؛ لابن قاضي شهبه (مخطوط): 2 / 123، العبر في خبر مَنْ غبر: 1 / 183، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة؛ ص 141، البداية والنهاية: 11 / 354، الشعور بالعور؛ لصالح الدين الصفدي (مخطوط)، ص 131-137، بغية الوعاة: 2 / 132، المزهرة: 2 / 467، النجوم الزاهرة: 4 / 205، حاشية البغدادي على شرح بانة سعاد: 2 / 199، الأعلام: 4 / 364، هدية العارفين: 5 / 652، دائرة معارف القرن العشرين: 3 / 189، دائرة المعارف الإسلامية: 1 / 122، دائرة المعارف؛ للبستاني: 1 / 436، تاريخ الأدب العربي؛ كارل بروكلمان: 2 / 244، تاريخ آداب اللغة العربية؛ جرجي زيدان: 2 / 303.

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ للمقدسي، ص 138.

من الزمان تقريباً؛ حيث عزف الطائي أروع قصائده على قيثار الشاعرية الشابّة الطامحة لدى القائد الأروع محمد بن حميد الطوسي.

ومن صُلب أب روميّ شتيم الوجه وحشيّ الصورة لا عِلْم عنده ولا فهم؛⁽¹⁾ فقد كان جندياً وقع في أسر المسلمين وأصبح مملوكاً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي - أراد الله أن يحبو العربية بأبي الفتح الذي فتح الله على يديه دولاً للعلم، وأثّل بأنامله أمجاداً للعربية ظل فريدها يزيّن جيد العربية حقّباً طوالاً حتى يوم الناس هذا.

وهنا يتوقف سير الرحلة ملياً أمام مشكلة عضال، هي تاريخ ميلاد ابن جني، تلك المشكلة التي تباينت فيها الآراء تبايناً حاداً حتى وجدنا خمسة آراء في القضية؛ هي:

(1) أنّه وُلِدَ قبل الثلاثين والثلاثمائة دون تحديد، وهي العبارة التي تناقلها جُلّ المؤرخين القدماء،⁽²⁾ والذي يُفهم منها أنه وُلِدَ قبل ذلك بعام أو عامين على الأكثر، وإلا فإن العام الأول للهجرة، بل إن ميلاد آدم، كان - لا ريب - قبل الثلاثين والثلاثمائة.

(2) أنّه وُلِدَ عام 322هـ؛ وهو رأي كثير من المُحدّثين،⁽³⁾ معتمدين على قول ابن قاضي شُهَبَة: «تُوِّفِي في صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وهو في السبعين - بتقديم السين»⁽⁴⁾. فإذا طرحنا سبعين من تاريخ الوفاة نتج لنا أنه وُلِدَ عام 322هـ.

(3) أنّه وُلِدَ سنة 320هـ؛ وهو رأي الأستاذ **PROBSTER** من محرري مادة دائرة المعارف الإسلامية دون أن يستند إلى دليل.⁽⁵⁾

(1) فهرست أبي بكر بن خير: 2 / 415.

(2) انظر: وفيات الأعيان: 3 / 246، معجم الأدباء: 3 / 461، إنباه الرواة: 2 / 335 وغيرها.

(3) منهم: محققو المحتسب (المقدمة): 1 / 6، والدكتور فاضل صالح السامرائي؛ في أطروحته للماجستير (ابن جني النحوي)، ص 37، والدكتور عبد الغفار هلال؛ في أطروحته للدكتوراه (ابن جني اللغوي)، ص 20.

(4) طبقات النحاة واللغويين: 2 / 125، 126.

(5) دائرة المعارف الإسلامية: 1 / 122.

(4) أَنَّهُ وُلِدَ سنة 302 هـ، وقد تفرَّد بهذا الرأي من القدماء أبو الفداء عماد الدين إسماعيل⁽¹⁾.

(5) أَنَّهُ وُلِدَ قبل سنة 300 هـ؛ وهو رأي كارل بروكلمان،⁽²⁾ ولم أجد له مستنداً ولا لرأيه نظيراً، وصاحبه ناقل لا شك، فيقيني أَنَّهُ نقله ممن قال قبل الثلاثين والثلاثمائة وهم أكثر المؤرخين، ثم سقطت كلمة الثلاثين سهواً فنقلها قبل الثلاثمائة. ولعلَّ نقطة البدء في حسم القضية هي قصة التقاء ابن جنيَّ بأستاذه أبي عليَّ الفارسيَّ، ولهذه القصة روايتان:

الأولى: رواية ابن الأنباري ونصُّها: «وأخذ عن أبي عليَّ الفارسيَّ، وصَحْبُهُ أربعين سنة، وكان سبب صحبته إيَّاه: أَنَّ أبا عليَّ الفارسيَّ كان قد سافر إلى الموصل فدخل إلى الجامع فوجد أبا الفتح عثمان بن جنيَّ يُقرئ النحو وهو شاب، وكان بين يديه متعلِّم وهو يكلمه في قلب الواو ألفاً (قام وقال)، فاعترض عليه أبو عليَّ فوجده مُقَصِّراً، فقال له أبو عليَّ: زَبَبْتَ قبل أن تُخَصِّرم، ثم قام أبو عليَّ ولم يعرفه ابن جنيَّ، وسأل عنه فقليل له: هو أبو عليَّ الفارسيَّ النحوي، فأخذ في طلبه فوجده ينزل إلى السُّمَيْرِيَّة يقصد بغداد، فنزل معه في الحال، ولزمه وصاحبه من حينئذٍ إلى أن مات أبو عليَّ، وخَلَفَهُ ابن جنيَّ»⁽³⁾.

الثانية: وهى رواية ابن خَلِّكان ونصُّها: «قرأ الأدب على الشيخ أبي عليَّ الفارسيَّ، وفارقه وقعد للإقراء بالموصل، فاجتاز بها شيخه أبو عليَّ، فرآه في حلقة والناس حوله يشتغلون عليه، فقال له: زَبَبْتَ وأنت حَصِّرم، فنزل حلقة، وتبعه، ولازمه، حتى تمهَّر»⁽⁴⁾.

(1) المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبى الفدا): 2 / 136.

(2) تاريخ الأدب العربي: 2 / 244.

(3) نزهة الألباء في طبقات الأدباء؛ ص 245، ومعجم الأدباء (باختلاف يسير): 3 / 466.

(4) وفيات الأعيان؛ لابن خلكان: 3 / 246.

* وقبل أن نستكنه دلالات هذه القصة المهمة نواجه من نفاها جملة وقام بإنكارها قائلاً: «ويظهر أن هذه القصة مصنوعة، لأن ابن خلكان يرويها على شكل آخر فيقول ... ثم يقول:

فالفرق بين الروایتين يظهر من وجوه ثلاثة:

أولاً: أن الرواية الأولى تذكر أن ابن جني ما كان يعرف أبا عليّ لما وقف عليه في الحلقة، والرواية الثانية تنصّ على أنه كان يعرفه، بل تزعم أنه كان تلميذه.

ثانياً: يذكر ابن جني في كتابه «الخصائص»؛ أن أبا عليّ أنشده بالموصل سنة إحدى وأربعين⁽¹⁾، ونحن نعرف أن ابن جني قد وُلِدَ حول الثلاثين والثلاثمائة، فعلى هذا يكون عمر ابن جني في سنة إحدى وأربعين نحواً من اثنتي عشرة سنة، وما يجوز عقل أن إنساناً له هذا العمر يرحل في طلب العلم قبل هذه السن من الموصل إلى بغداد ثم يعود ويخلق حلقة يعلم فيها النحو.

ثالثاً: جرت عادة المترجمين من المتقدمة أن يخلقوا قصصاً وروايات يعلّلون بها أسباب انصراف هذا الطالب إلى ذلك العالم أو الشيخ، فيخترعون لذلك قصصاً ينسجها خيالهم، وأنا أرى أن قصة الزبيب والحصرم من هذا النوع، ابتدعه مترجمو ابن جني؛ لبيّنوا سبب تعلّق ابن جني بالصّرف أولاً، وبشيخه أبي عليّ ثانياً⁽²⁾.

وأقول: إن هذا الزعم مردودٌ جملةً وتفصيلاً، حيث إنّ القصة متواترة في جُلّ كتب التراجم دون أن يُشير أحدٌ إلى أيّ لونٍ من الشك في صحتها، وحدوث اختلاف في الرواية لا ينفي القصة أصلاً، بل إنّه عندي لثبوتها من طريقٍ آخر، وكأنّ كلّ مؤرّخ قد تلقّفها من طريق فحدث هذا الاختلاف اليسير لتعدّد جهات السماع، خاصة أنّها قصة يمكن التصرف فيها وروايتها بالمعنى، وأين هي القصة التي اتفق المؤرخون جميعاً في نقلها؟!

(1) الخصائص: 1/ 75.

(2) (أبو الفتح بن جني) - عشر مقالات متسلسلة؛ نشرها الدكتور أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلدات 24، 25، 30، 31، 32، وهذا النقل من المجلد 30، ج 3، ص 448، 449.

بل إنّه من المشاهد «أنّ حوادث تقع في أيامنا وعلى قُرْبٍ منا، ثم تختلف الروايات وتتضارب في نقلها وكيفية وقوعها، فلا نقول إن الحادثة مصنوعة لا أساس لها».⁽¹⁾

وأما مسألة عمره؛ فنحن نذكر أن يكون ابن اثني عشرة سنة في ذلك الوقت كما سيتبين لنا لاحقاً.

وأما أن يتهم الدكتور الفاضل المؤرّخين بالوضع والاختلاق؛ فتلك وربّ البيت فريّة ما فيها مزيّة، وتهجم بغیض على مؤرخينا العظام الذين تحلّوا بكثير من الأمانة والضبط، ولو أنّنا فتحنا هذا الباب الرديء ووجّهنا تهماً باثرة لمرويات دون أساس علمي لضاع كل شيء ولم يبق في أيدينا أيّ خبر يُعتمد عليه، ما دام لكل شاذ الحق في إنكاره متى راقه ذلك، وأخشى أن تكون عدوى الشك الطاهوي قد حملتها رياح نكباء إلى سوريا فاستعذبها الدكتور طلس، ولاذ بها بعدما أخذت نارها، وعاد أنصارها صُفّر الوجوه من الخزي والعار.

* ثم نأتي بعد ذلك إلى الترجيح والموازنة بين الروايتين؛ فأقول:

إنّ حادثة اجتياز أبي عليّ بالموصل قد وقعت عام 337هـ؛ حيث كان مع معز الدولة البويهّي الذي هاجم آل حمدان بالموصل في تلك السنة، وقد انهزم أمامه ناصر الدولة، وانكشع عنها إلى نصيبين.⁽²⁾ ومعلوم أنّ أبا عليّ كان ملازماً لبني بُوَيْه يُسايروهم في كل مكان ويؤلف لهم كتبه، ويخالطهم فيما دقّ وجلّ من أمورهم.⁽³⁾

ويؤكّد هذا أنّهم ذكروا أنّ ابن جنّي لازم أبا عليّ أربعين سنة، وقد توفّي عام 377هـ، فكان حادثة الزبيب والحصرم إنّما وقعت عام 337هـ لا غير.

فإذا صحّ ذلك كان معناه الرّدّ الكامل لما قاله المؤرخون من أنّه وُلِدَ قبل الثلاثين والثلاثمائة؛ لأنّه يعني أنّ ابن جنّي كان في السابعة أو الثامنة من عمره، وهو سنّ لا يُتصور فيه تدريس، بل لا يُتصور فيه العلم بالعربية أصلاً.

(1) ابن جنّي النحوي؛ د. فاضل صالح السامرائي؛ ص 36.

(2) البداية والنهاية: 233 / 11، ومقدمة الخصائص: 20 / 1.

(3) انظر: أبو عليّ الفارسي؛ د. عبد الفتاح شلبي؛ ص 62، 63.

تبقى لنا أربعة آراء يمكن إجمالها في احتماليين:

أولهما: أنه وُلِدَ عام 322 هـ؛ وهو رأي بعض المُحدثين، ولا فرق بينه وبين رأي محرّر دائرة المعارف الإسلامية فهو قريبٌ منه، ثم إنّه لا مستند له مطلقاً، ولم أجده في كتابٍ معتمد.

ثانيهما: أنه وُلِدَ عام 302 هـ؛ وهو رأي أبي الفداء، وقريبٌ منه بروكلمان، الذي رجّحتُ أنّه سها في نقله.

وهنا أجدني أقربُ إلى الاحتمال الثاني؛ مرجّحاً رواية ابن خلكان على رواية ابن الأنباري لما يلي:

أولاً: اتّفقت الروايتان على أنّه وُجِدَ يُلقى دروساً في العربية على مجموعة من التلاميذ تحلّقت حوله، فلو حدّدنا ميلاده بعام 322 هـ لكان عمره خمس عشرة سنة، ومن القليل أن يتعرض شادٍ في سنّه للتدريس في هذه السنّ المبكرة التي هو أليق فيها بمقام الطالب لا بمقام المعلّم الموجه.

لكنّ الدكتور عبد الغفار هلال يقول: «ولا مانع من جلوس الإنسان في هذه السنّ لإلقاء بعض الدروس للراغبين، فالمشاهد في بيئتنا المعاصرة أنّ طالب الأزهر عندما يذهب إلى بلدته وقد تلقّى بعض الدروس في معهده يجلس إليه الناس في المساجد وغيرها ليسألوه في إرشادهم فيجيبهم قدر استطاعته».⁽¹⁾

وأقول: هذا قياسٌ مع الفارق لأنّ قرّانا الصغيرة ما احتاجت إلى طالب الأزهر الشادي إلّا لانعدام العلماء الثقات فيها، وربّما لا يكون في القرية قاطبةً من يتلو كتاباً أو يحطّ بيمينه حرفاً، بخلاف الموصل؛ التي وصفها المقدسيّ بأنّها «بلد كثير الملوك والمشايخ لا يخلو من إسنادٍ عال وفقيه مذكور»⁽²⁾، فكيف يتخطّى ابن جني في هذه السن هؤلاء العلماء والفقهاء ويتصدّر دونهم؟ خاصة أنّ الرواة يجمعون على أنّ ذلك كان في جامع

(1) ابن جني اللغوي؛ د. عبد الغفار هلال، ص 20.

(2) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ ص 38.

الموصل، وهو المسجد الكبير الذي تُقام فيه الجمعة، وليس زاوية صغيرة؛ كأنّها مِفْحص قَطَاة، تحتاج طَوِيلًا للتدريس فيها؟

فتمديد ميلاده بعام 302 هـ يعني أنّه كان في الخامسة والثلاثين من عمره، وهي سن جدّ مناسبة للقاء دروس العربية.

ثانيًا: أنّ رواية ابن خلكان تذكر أنّه تتلمذ على أبي عليّ في بغداد قبل هذه الحادثة، ويقوّى ذلك عندي ما قاله أبو الفتح في ختام إجازة كتبه «... من جميع رواياتي مما سمعته من شيوخي رحمهم الله وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت بها».⁽¹⁾

فترتيب البلاد مقصودٌ عندي، وكأنّه يلمّح إلى حدوث التلمذة بالعراق أولاً، قبل الموصل، فإنّ صحّ هذا كان من البعيد جدًّا أن يتوهم متوهم أنّ ابن جنّي قد رحل عن الموصل إلى العراق وطلب بها العلم، ثم جاء لتدريسه كل ذلك قبل الخامسة عشرة من عمره.

وقد يُعترض على هذا بما جاء في بعض الروايات من أنّ ابن جنّي لم يعرفه، ولما سأل عنه فقيل له: إنّهُ أبو عليّ الفارسيّ، فيُقال: كيف لم يعرف أستاذه الذي تتلمذ على يديه في بغداد؟

والذي أراه أن هذه العبارة من زيادة راوٍ؛ أراد أن يضفي حبكة فنيّة على خبره، وليس أدلّ على هذه الصناعة الظاهرة ما جاء في تكملة الرواية «... فأخذ في طلبه، فوجده ينزل إلى السُمَيْرِيّة، يقصد بغداد، فنزل معه في الحال ولازمه وصاحبه»⁽²⁾، فهل هناك صنعة قصصيّة بعد هذا؟ أن يسافر تلميذ مع أستاذه ليلقاه لأول مرة، وأن يترك أهله في البيت دون وداع؟ وأن يسافر بلا زادٍ في رحلة بحرية طويلة من الموصل إلى بغداد.

والذي أعتقدهُ أنّ أبا عليّ اندسّ بين الحاضرين ليختبر تلميذه في درسه عمليًّا، فوجد علمه لم يُستحكم وخبرته لم تتم، فقال له هذه العبارة على سبيل الدُّعابة لتلميذه الذي ما زال صغيرًا إلى جوار شيخه؟

(1) معجم الأدباء: 3/ 479.

(2) نزّهة الألباء؛ ص 245، والسميرية: ضربٌ من السفن.

ثالثاً: أن ابن جني رحل مع أبي علي إلى حلب عام 341 هـ، وهناك ناظر المتنبي وحاوَره في شعره، والمتنبي من هو خبرة بالعربية وثمرساً بأساليبها؟ وهو من هو في تعاليه على أقرانه؟ فهل كان في مقدور ابن جني مقاومة عاصفة هوجاء تُدعى (المتنبي) وهو ابن تسع عشرة سنة؟ ثم إن عبارات المتنبي في حديثه عن ابن جني تُشعر بالتقارب السني بينهما، فقد كان المتنبي يقول فيه: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس»،⁽¹⁾ ويقول: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جني، فسلوه فإنه يقول ما أردت وما لم أرد»⁽²⁾.. وعندما سُئل عن بيت قال: «لو كان صديقنا أبو الفتح ابن جني حاضراً لفسره»⁽³⁾. فصدور هذه الكلمات (رجل - شيخ - صديقنا) من صخرة كبرياء اسمها المتنبي لا يمكن أن تتوجه إلى شاب يكبره المتنبي بنحو عقدين من الزمن، وإنما توجه لمناظر في السن، وحسب رأينا فإن ابن جني يكبر المتنبي بعامين، حيث وُلِدَ الأخير عام 304 هـ.

رابعاً: يحاول البعض تفنيد رواية أبي الفداء بحجة أنها تقتضي أن يكون أبو الفتح وقت حادثة الموصل في الخامسة والثلاثين، وما كان أبو الفتح ليقتصر وهو في هذه السن في مسألة قلب الواو ألفاً، ولا لأبي علي أن يقول قولته تلك.⁽⁴⁾

أقول: إنه اعتراض لا محل له، لأننا لا ندرى ما السؤال الذي وجه إليه حول المسألة؟ حيث إنه من الممكن توجيه أسئلة فلسفية موهلة في التعقيد حول أوضح المسائل النحوية، ثم إن كل إنسان مهما بلغ علمه عرضة للزلل في أظهر المسائل، فلكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة، ولن نبتعد عن ابن جني الذي سألته ولده عن إعراب بيت أبي نواس:

غَيْرُ مَا سُوفِ عَلَى زَمَنِ يَنْقُضِي بِالْهَمِّ وَالْحَزَنِ

فارتبك في إعرابه.⁽⁵⁾

من هنا رجحت عندي رواية أبي الفداء في المختصر وملئت إلى القول بأنه وُلِدَ عام 302 هـ.

(1) بغية الوعاة: 2 / 132.

(2) مقدمة الخصائص: 1 / 23، عن مسالك الأبصار: 4 / 306.

(3) معجم الأدباء: 3 / 474.

(4) مقدمة المحتسب؛ ص 6.

(5) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك؛ ص 30، ط. الحلبي.

في صحبة أبي عليّ الفارسيّ

قضى ابن جنّي عمره جَوَابَ آفاقٍ، نَضَوَ أسفارٍ، فما زالت الفلواتُ تتقاذفه من المَوْصل إلى حلب إلى بغداد إلى شيراز، وهو في كل هذه الرحلات ينهل من أنهار العلم، ويعمل من ينبع الفكر، فإذا كان التاريخ قد طوى عنا حياته قبل صُحبة أبي عليّ، فالذي لا شكّ فيه أنّ الرجل «قد رُزِقَ حظًّا عظيمًا جدًّا من الذكاء والحدق والبراعة والجدّ في التحصيل والصبر عليه، والدقّة في البحث والاستقصاء والرغبة الجاحمة، فكان لذلك كلّ أعظم تأثير في تكوينه؛ حتى أصبح إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف، والرئيس الذي انتهت إليه الرياسة فيهما»⁽¹⁾.

ثم بدأت معالم حياته تتجلّى عقب حادثة جامع الموصل وقول الفارسيّ له: «تَزَيَّتْ وأنت حِصْرَم، وكأَنَّمَا فَجَّرْتَ هذه الكلمات مكان من علم حَبِيءٍ»، واستنبطت عينُ ماءٍ نَمِيرٍ ذاهبٍ في الشرى، واستخرجت معدنًا نفيسًا ضاربًا في الأرض بعروقه، فكانت صلة علمية مباركة، ذلك أنّ ابن جنّي لازم شيخه حِلًّا وارتحالًا، وكأنّه أرهف سمعه لكل ما يقول الشيخ حتى كاد يُحصى أنفاسه»⁽²⁾.

لقد صحب ابن جنّي أستاذه مدة أربعين سنة؛⁽³⁾ أي منذ حادثة الموصل عام 337هـ، حتى لحق أبو علي بالرفيق الأعلى عام 377هـ، يتقلب معه في البلاد، ويُجالس الملوك في بلاطهم بكرامة أستاذه العظيم.

وهنا وجدنا من الباحثين من يشكّ في هذه المدة قائلًا: «ويقول بعض المؤلفين إنّ ابن جنّي لازم شيخه أبا عليّ الفارسيّ أربعين سنة وهذا غير معقول؛ لأنّ ابن جنّي لم يعيش إلّا اثنين

(1) ابن جنّي أبو الفتح عثمان؛ مقال الأستاذ/ عبد الله أمين؛ بالمقتطف، م 111، ج 3، ص 154، 155.

(2) مقدمة تحقيق كتاب «الشعر» لأبي عليّ الفارسيّ؛ د. محمود محمد الطناحي: 1/ 5: 6.

(3) معجم الأدباء: 3/ 466؛ وترجمة أبي عليّ الفارسيّ فيه: 2/ 414.

وستين سنة، قضى منها قبل ملازمة شيخه نحو عشرين سنة على الأقل، لأن الروايات متضاربة على أنه لازمه بعد أن تصدّر للتدريس في جامع الموصل، ولا يمكن أن يتصدّر للتدريس في مسجد جامع قبل سن العشرين، ثم لم يعيش بعد شيخه إلا خمس عشرة سنة، فإن الشيخ مات سنة 377هـ والتلميذ مات سنة 392هـ، فيكون قضى من عمره كله نحو خمس وثلاثين سنة قبل معرفته شيخه، وبعد افتراقهما ب وفاة هذا الشيخ بدون ملازمة له، والباقي من عمره بعد طرح خمس وثلاثين سنة وهو سبع وعشرون سنة، هو الذي يُمكن أن يقال إنّه لازمه فيه، وأيّ شيخ لا ينفد ما عنده في أقل من نصف هذه المدة؟ وأيّ طالب يبقى في حاجة إلى شيخه أكثر من نصف هذه المدة»⁽¹⁾.

أقول: هذا الشك إنما بُنى على فرضين لا نُسلم بهما:

أولهما: توهم أنّه وُلِدَ عام 330هـ؛ وقد بينت أنّه وهم خاطئ.

ثانيهما: افتراض اللقاء بعد بلوغ ابن جني عمر العشرين دون أي دليل أو نص، ألم يقرأ الأستاذ الفاضل في الخصائص قول ابن جني: «وأنشدنا أبو علي - رحمه الله - لجرير:

سِيرُوا بَنِي الْعَمِّ فَلَا هَوَاؤَ مَنُوكُمْ وَنَهْرُ تِيرِي فَلَا تَعْرِفُكُمْ الْعَرَبُ

بسكون فاء تعرفكم، أنشدنا هذا بالموصل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة»⁽²⁾؛ ليعرف خطأ هذه المسألة الحسابية التي لا يستند صاحبها إلى أسس تاريخية؟

أما إن هذه المدة طالت على غير العادة، فهي حقاً طويلة إلا أنّ هناك أسباباً أخرى - بالإضافة إلى طلب العلم - جعلت الرحلة تطول على غير العادة؛ لعل منها:

(1) لم يكن لأبي عليّ الفارسيّ ولد، إذ يبدو أنّه لم يتزوج طوال هذا العمر المديد،⁽³⁾ يؤيد ذلك قول ابن جني في الثناء عليه: «ولله هو وعليه رحمته، فما كان أقوى قياسه، وأشدّ لهذا

(1) ابن جني: أبو الفتح عثمان؛ مقال المقتطف، ص 159، 160.

(2) الخصائص: 1/ 75.

(3) انظر: أبو علي الفارسيّ؛ د. عبد الفتاح شلبي، ص 65.

العلم اللطيف الشريف أنسه، فكأنّه إنّما كان مخلوقاً له، وكيف كان لا يكون كذلك، وقد أقام على هذه الطريقة مع جُلّة أصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة زائحة عِلله، ساقطة عنه كلفه، وجعله همّه وسدّمه، لا يعتاقه عنه ولدٌ ولا يعارضه فيه متجرٌّ، ولا يسوم به مطلباً، ولا يخدم به رئيساً إلا بأخرة، وقد حط من أثقاله، وألقى عصا ترحاله»⁽¹⁾.

فلعلّ الفارسيّ جعل من ذلك الشاب النجيب ولده الذي يأنس به، وعدّه ابن جنّي بمنزلة أبيه.

(2) يبدو أنّ ابن جنّي كان فقيراً، فوالده كان مملوكاً، وهو عائل بنفسه؛ فكيف يعول أبناءه الثلاثة: عليّاً وعاليّاً وعلاء؟ يؤكّد هذا الفقر قوله في صدر المحتسب: «ولعل الخطرة الواحدة تحرق بفكري أقصى الحُجب المتراخية عني في جمع الشتات من أمري، ودَمَلِ العوارض الجائحة لأحوالي، وأشكر الله ولا أشكوه، وأسأله توفيقاً لما يرضيه»⁽²⁾.

وقد أشار إلى غناه بالعلم عمّا فاته من متاع الدنيا بقوله:

وإِمَّا فَاتَنِي نَشَبٌ كَفَانِي ذَاكَ مِنْ نَشِيٍّ⁽³⁾

بينما كان أبو عليّ ميسوراً إلى حدٍّ بعيد، يتمتع بالعيش الرغيد في بلاط الملوّك، وقد كان سخياً حتى روى «أنّه أوصى بثُلث ماله لُنْحاة بغداد فكان ثلاثين ألف دينار»⁽⁴⁾. فكأن ابن جنّي قد أثر العيش في ظل العطايا السخيّة التي طالت النُحاة الآخرين؛ فكيف بتلميذه الذي يلازمه؟ وكأنّ الله قد عوّض ابن جنّي عن فقره أستاذاً سخياً بعلمه وماله.

(3) كان أبو عليّ على اتصالٍ بالملوك والأمراء من آل بويه، وقد ألّف باسمهم كثيراً من كتبه، حتى إنّ عضد الدولة البويهّي كان يقول: «أنا غلام أبي عليّ في النحو»⁽⁵⁾.

(1) الخصائص: 1/ 278.

(2) المحتسب: 1/ 34.

(3) معجم الأدباء: 3/ 472.

(4) غاية النهاية في طبقات القراء: 1/ 207.

(5) معجم الأدباء: 2/ 414.

بل وصلت حظوته عندهم إلى حدٍّ أنه أصبح وكيلا عن عضد الدولة في عقد زواج ابنته الكبرى من الطائع لله،⁽¹⁾ وكان ابن جني جعل من أستاذه سُلماً للوصول إلى بلاط الأمراء فيحظى بمثل ما حظي به شيخه، وقد كان.

فلا غرابة إذن في تلك الصحبة الطويلة التي بدأت بالموصل سنة 337 هـ، وظل الرجلان بين بغداد والموصل حتى عام 341 هـ؛ الذي شهد راحة بالموصل حدث فيها ابن جني عن شيخه كثيراً،⁽²⁾ لينتقلا معاً في العام نفسه إلى حلب؛ حيث بلاط سيف الدولة الحمداني⁽³⁾ العامر بالنُّحاة والكتّاب والشعراء، ليخوضا معاً غمار المناقشات الحامية الوطيس في ذلك المجلس الزاهر، والتي كان لها أكبر الأثر في أن ابن جني حتى اشتد عوده، وقوى أمْلُوده كما سنبيّن إن شاء الله.

ويبدو أن ابن جني كان يستأذن أستاذه أحياناً ليرى أهله بالموصل بين الفينة والفينة بدليل: «وقد كان أبو عليّ - رحمه الله - كتب إليّ من حلب وأنا بالموصل مسألة أطالها في هذه اللفظة»،⁽⁴⁾ ولكنَّ الرجل لم يقطع أستاذه، بل كان سريعاً ما يعاود أدراجه، وآخر إشارة تدل على إقامته بحلب قوله: «وحدّثني أبو عليّ بحلب سنة ست وأربعين».⁽⁵⁾

ثم غادر حلب إلى بغداد في ذلك العام؛ حيث ألقى عصا التسيار ليتفرغ لخدمة البيت البويهي: عضد الدولة، وولده صمصام الدولة، وولده شرف الدولة، وولده بهاء الدولة؛ الذي مات في عهده، وكان يلزمهم في دُورهم وبيّاتهم.⁽⁶⁾

وفي أثناء هذه المدة كان يزور شيراز حتى تكتحل عينه برؤية ابن العميد، لكنها كانت زيارات نادرة لا تنفي إقامته ببغداد.

(1) البداية والنهاية: 315 / 11.

(2) انظر: الخصائص: 75 / 1، المحتسب: 186 / 1.

(3) انظر: وفيات الأعيان: 80 / 2.

(4) الخصائص: 40 / 3.

(5) المحتسب: 83 / 1، الخصائص: 90 / 2.

(6) إنباه الرواة: 340 / 2.

وقد ظلّ ابن جنّي بمنزلة النائب لأستاذه حتى تُوفيّ الشيخ عام 377هـ، ليتصدر بعدها ابن جنّي للتدريس في بغداد حتى توافيه منيته عام 392هـ.

وليس معنى ملازمة ابن جنّي لأبي علي الفارسيّ أنّه حصر مصادر معرفته فيه، ولم يتنفّس إلّا من رثته، فقد أفاد من ثلّة ضخمة من العلماء؛⁽¹⁾ حتى إنّهُ يُخيّل للباحث أنّ ابن جنّي كان يعدّ أنفاس علماء عصره، ملتقطاً الحكمة من فم من يحملها أيّاً كان، فهي ضالته أنّى وجدها فهو أحقّ بها، حتى ولو كان حاملها أعرابياً جلفاً، إذ ربما تدفّقت القاعدة على لسانه دون قصد فيهتبل ابن جنّي الدلالة الخطيرة لهذا التدفق، فقد حدّثنا قائلاً: «حضرني قديماً بالموصل أعرابيّ عقيليّ جَوْنِيّ تيمّي يُقال له محمد بن العساف الشجري، وقلّما رأيت بدويّاً أفصح منه، فقلت له يوماً شغفاً بفصاحته، والتذاذاً بمطاولته، وجرياً على العادة معه في إيقاظ طبعه، واقتداح زُند فطنته: كيف تقول أكرم أخوك أباك؟ فقال: كذلك، فقلت له: أفقول: أكرم أخوك أبوك؟ فقال: لا أقول أبوك أبداً؟ فقلت له: فكيف تقول: أكرمني أبوك؟ فقال كذلك، قلت: أَلست تزعمُ أنك لا تقول أبوك أبداً؟ فقال: إيش هذا؟ اختلفت جهتا الكلام... فهل قوله (اختلفت جهتا الكلام) إلا كقولنا نحن: هو الآن فاعل وكان في الأول مفعولاً؟ فانظر إلى قيام معاني هذا الأمر في أنفسهم وإن لم تقطع به عبارتهم».⁽²⁾

إنّهُ ذكاء المحاور، وقوة استدلال بمعنى قصد العرب لمعاني الإعراب، ذلك المعنى الذي جاء على لسان أعرابي لا يعرف أقيسة النُّحاة ولا اصطلاحات علماء العربية.

وبعد؛ فهذه لمحة عن حياة الرجل الرّحالة طلباً للعلم، والعلم بعض فوائد الأسفار، ذلك العلم الذي جعل يجمع ذرّاته من أفواه العلماء وغير العلماء، ليكون هذا الجبل الضخم من العلم الفاقه لأسرار العربية السابر لأغوارها، حتى إنّ المُطالع لكتبه يجد احتشاداً ضخماً وسيلاً متدفّقاً من شتى المعارف؛ نحويّة وصرفيّة ولغويّة وأدبيّة ونقديةّ وبلاغيةّ وتاريخيّة، وكأنّا أمام دائرة معارف، أو على مائدة رائعة تحفل بها لَذّ وطاب من علم وفن.

(1) انظر أسماءهم في: مقدمة الخصائص: 1/ 16، ابن جنّي النحوي؛ ص 28، أبو الفتح بن جني؛ د.

أسعد طلس - مجلة المجمع العلمي العربي م 30، ج 3، ص 447.

(2) الخصائص: 1/ 77، معجم الأدباء: 3/ 475، 476.

صفاته وشمائله

لكلِّ إنسان صفات في خُلُقِهِ وَخُلُقِهِ تميّزه من غيره، وتحدّد اتجاهه السلوكي في حياته، وترسم صورةً عنه في مخيلة الآخرين إن بالاستحسان وإن بالاستهجان - ومن خلال الأخبار التي وصلتنا عن ابن جني نستطيع تحديد ملامح شخصيته العبقريّة خُلُقًا وَخُلُقًا فيما يلي:

(1) العَوْر:

كان أبو الفتح - رحمه الله - ممتعاً بعين واحدة، وقد أخفت عنا كتب التراجم سرّ ذلك، هل وُلِدَ كذلك؟ أو ذهب بصرها في حادثة معينة؟

وقد تحدّث هو عن عَوْرِهِ قائلاً: ⁽¹⁾

صُدُودُكَ عَنِّي وَلَا ذَنْبَ لِي	دَلِيلٌ عَلَى نِيَّةٍ فَاسِدَةٍ
فَقَدْ وَحْيَاتِكَ مِمَّا بَكَيْتُ	خَشِيتُ عَلَى عَيْنِي الْوَاحِدَةَ
وَلَوْ لَا مَخَافَةُ أَلَّا أَرَاكَ	لَمَا كَانَ فِي تَرْكِهَا فَايِدَهُ

وعلى الرغم من أن ابن خلكان يشكك في نسبة الأبيات إليه قائلاً: «وقيل إن هذه الأبيات لأبي منصور الديلمي»؛ ⁽²⁾ فإننا نرى أن عَوْرَهُ ثابت بغير تلك الأبيات، إذ ترجم له الصلاح الصفدي في كتابه الفريد (الشعور بالعور)، ⁽³⁾ كما أن أحد خصومه نبّه بذلك العيب قائلاً: ⁽⁴⁾

وَنَحْنُ مِنْ طَيِّبَةِ خُلُقًا	مَا خُلِقَ الْجِنُّ مِنْهُ نَارٌ
الْعُرُّ وَالْعَارُ فَيَكُ تَمًّا	وَالْعَوْرُ التَّامُّ وَالْعَوَارُ

(1) معجم الأدباء: 3/ 466، وفيات الأعيان: 3/ 246، نزهة الألباء: 1/ 333.

(2) وفيات الأعيان: 3/ 246.

(3) انظر: الشعور بالعور (مخطوط)؛ ص 131 - 137.

(4) معجم الأدباء: 3/ 467.

وقد كان القدماء - رحمهم الله - يعبرون عن ذلك العيب قائلين: «وكان أبو الفتح بن جنّي مُتَعَمِّاً بإحدى عينيه»⁽¹⁾، وكأن هذه الكناية من باب التوجيه البديعي فإنَّ إحدى العينين الممتَّع بها الأعور يجوز أن تكون المبصرة يتمتع بالإبصار بها، والاهتداء بنورها، ويجوز أن تكون الذاهبة، فالأعور ممتَّع بثواب الصبر عليها والأجر على فقدتها⁽²⁾.

(2) الجِدِّ:

فقد عاش ابن جنّي منهوماً في طلب العلم، همّه اقتناص المعرفة، فمن الطبيعي أن ينأى بنفسه عن مجالس اللهو، وأن يربأ بنفسه عن مخالطة أهل العريضة أو الاسترسال معهم في مرحهم ومجونهم، معتقداً أنَّ ذلك يخل بمروءته ويزرى بمكانته التي هي أعلى من كل هذه السفاسف في عيون الناس «فقد جمعه مجلس مع أبي الحسين القُمِّي، وكان لابن جنّي عادة في حديثه بأن يميل بشفتيه ويُشير بيده، فبقى أبو الحسين القُمِّي شاخصاً ببصره يتعجب منه، فقال له ابن جنّي: ما بك يا أبا الحسين تحدِّق إلى النظر وتكثر منّي التعجب؟ قال: شيءٌ ظريف، قال: ما هو؟ قال: شَبَّهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا ويبيده كذا بقردي رأيتَه عند صعودي إلى دار المملكة، وهو على شاطئ دجلة يفعل مثل ما يفعله مولاي الشيخ، فامتعض أبو الفتح وقال: ما هذا القول يا أبا الحسين؛ أعزَّك الله، ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي، أو أجبني فتمجن بي؟»⁽³⁾.

ولعلَّ كل قارئ لكتب ابن جنّي يحسّ فيه هذه الصفة، إذ يشعر عند قراءة المسألة أنَّه أمام مبارز في ميدان، أو فارس في حلبة الفرسان، يصول بجسارة، ويُقاتل بحرارة، كأنها يُجالد عدوًّا شرًّا مجالدة لا تعرف اللين أو الهوادة.

(1) معجم الأدباء: 3/ 466.

(2) مقدمة الخصائص 1/ 13، 14.

(3) معجم الأدباء: 3/ 462.

ورحم الله الشريف الرضي الذي لمس في شيخه تلك الصفة، فندب في رثائه له هذه الصفة القتالية قائلاً⁽¹⁾:

فَمَنْ لَأَوَابِي الْقَوْلِ يَبْلُو عِرَاقَهَا وَيَحْذِفُهَا حَذْفَ النَّبَالِ الْمَوَارِقِ
إِذَا صَاحَ فِي أَعْقَابِهَا أَطْرَدَتْ لَهُ ثَوَانِي بِالْأَعْنَاقِ طَرْدَ الْوَسَائِقِ
(3) التقوى والعفة:

من يقرأ فكر ابن جني يجد منه امرأً عفيفاً مهذباً، طاهر القلب عفاً اللسان، يترقق ماء التقوى في جبينه، ويفوح عير الورع من بين أردانه، تلمس ذلك واضحاً وهو يقول في خطبه كتابه (المحتسب): «اللهم إِنَّا نحمدك أقصى مدى الحامدين، ونعترف بآلائك كما أوجبت على المطيعين من عبادك الْمُعْتَرِفِينَ، ونسألك أن تصلي على نبيك المرتضى وآله الطاهرين، وأن تُحسن عوننا وتسديدنا على ما أجمعنا فيه القربة إليك، في أملنا به لطف المسعاة فيما يدنى منك، ويحظى بالزُلفة لديك، وأن تجعل أعمالنا لك، واتصالاتنا بك، ومطالبنا مقصورة على مرضاتك، وإن قصرت أفعالنا عن مفروضاتك وَصَلَتْهَا بِرَأْفَتِكَ بِنَا، وَتَلَفَيْتَنَا مِنْ سَيِّئَاتِ أَنْفُسِنَا مَا امْتَدَّتْ أسباب الحياة لنا، فإذا انقضت علائقُ مُدَدِنَا، واستوفي ما في الصحف المحفوظة لديك من عَدَدِ أَنْفَاسِنَا، واستؤنفت أحوال الدار الآخرة بنا، فاقلبنا إلى كنز جنتك التي لم تُخلق إلَّا لمن وسع ظلُّ رحمتك»⁽²⁾.

إِنَّا أُمَامَ عَابِدٍ يَتَضَرَّعُ فِي مَحْرَابٍ، مَلْتَحِفٍ رِءَاءَ الدُّلِّ أُمَامَ مَوْلَاهُ، مُسْتَشْعِرٍ عِظْمَةِ الْخَالِقِ التي ترهبه، أمل في عفوه الذي يرغبه، ولا غرور فهو القائل معترفاً بآلاء الله التي أسبغها عليه ظاهرة وباطنة:⁽³⁾

(1) ديوان الشريف الرضي: 2/ 65، والنبال الموارق هي التي تمرق من الرمية فتخرج من الجانب الآخر، والوسائق: جمع وسيقة؛ وهي القطيع من الإبل يجمعها صاحبها ولا يدعها تنتشر عليه.

(2) المحتسب: 31/ 1.

(3) معجم الأدباء: 3/ 471، 472.

شَكَرْتُ اللَّهَ نِعْمَتَهُ وَمَا أَوْلَاهُ مِنْ أَرْبٍ
زَكَتْ عِنْدِي صَائِعُهُ فَوَقَّعَنِي وَأَحْسَنَ بِي
تَخَوَّلَنِي وَخَوَّلَنِي وَتَوَلَّيَنِي وَتَوَوَّهَ بِي
وَأَخَّرَ مِنْ يُقَادِمُنِي وَأَعْلَانِي وَأَرْغَمَ بِي

إنَّ اعترافه بالنعمة واعتزازه بها لا يعنى اغتراره ولا يشي بشيء من الكبر الذي تبرأ منه ابن جني كل البراءة، فهو معتقد أنَّ العلم منحة إلهية، ومعتزف أنَّه من فيض علم الله يغترف، ألم يقل عن ابن مجاهد: «ورحم الله أبا بكر؛ فإنه لم يألُ فيها علمه نصيحاً، ولا يلزمه أن يرى غيره ما لم يُره الله تعالى إيَّاه، فسبحان قاسم الأرزاق بين عباده، وإيَّاه نسأل عصمة وتوفيقاً وسداداً بفضلِهِ». (1)

والحقُّ أنَّ الرجل كان عَفُّ القلم كما كان عَفُّ اللسان، إذ كان يعاف الكلمة العوراء، ويأبى العبارة المُنْذِيَة للجبين، حتى إنَّه كان يغيِّر في الشعر ما يستقبح ذكره إلى مرادفه أو إلى معناه «فقد كان ينشد قول الشاعر:

أَجْدَلُ مَا تَقُولُ بُؤْمِيرٍ إِذَا مَا الْفَعْلُ فِي اسْتِ أَيْبِكَ غَابَا

والفعل محوّل عن الأيّر، وقد تعمّد ذلك لينجو من معرّة اللفظ، ولو تهيأ له أن ينجو من الالاست لفعل». (2)

ورحم الله الشريف الرضي الذي تحسّس منه تلك الحلّة الرائعة فبكاهها في رثاءه قائلاً (3):

مَضَى طَيْبَ الْأُرْدَانِ يَارْجُ ذِكْرُهُ أَرِيحَ الصَّبَا تُنْدَى لِعُرْنَيْنٍ نَاشِقِ
وَمَا احْتِجَاجُ بُرْدًا غَيْرَ بُرْدِ عَفَافِهِ وَلَا عَرَفَ طَيْبٍ غَيْرَ تِلْكَ الْخَلَائِقِ

(1) المحتسب: 71 / 1.

(2) مقدمة الخصائص: 16 / 1.

(3) ديوان الشريف الرضي: 66 / 2.

(4) احترام أهل العلم:

من أجل صفات العالم الحق أنه يحترم أساتذته، ويبجل أهل العلم، ويحفظ أقدارهم ولا يرضى من نفسه ولا من أحد غيره بانتقاصهم أو الزرابة عليهم، وقد كان ابن جني قدوة في هذا الميدان، إذ التحف الرجل ثياب التواضع مع أهل العلم، خاصة أستاذه أبا على الفارسي؛ الذي أثنى عليه الشفاء كله، فلا يذكره إلا مترجماً عليه، محوطاً بإكليل من عبارات الشفاء؛ حيث يقول مثلاً: «وهذا أبو علي - رحمه الله - كأنه بعد معنا، ولم تبين به الحال عنا، كان من تحوُّبه، وتأنَّيه وتحرجه كثير التوقُّف فيما يحكيه، دائم الاستظهار لإيراد ما يرويه؛ فكان تارة يقول: أنشدتُ لجرير فيما أحسب، وأخرى: قال لي أبو بكر فيما أظن، وأخرى: في غالب ظني، وأرى أنني قد سمعت كذا»⁽¹⁾.

إننا نفهم من النص أنه كتبه بعد وفاة شيخه، لكنه لم يتصل منه، فيقلب له ظهر المِجَنِّ كما يفعل بعض الطلاب العاقين مع شيوخهم، يتزلفون إليهم وهم ضعاف، فإذا ما اشتد ساعدهم رموا أساتذتهم، وعقوا الأيدي التي كانت تُمدُّ إليهم وهم عاجزون.

ونحن نعلم أنه من العادات السيئة للمؤلفين في القديم والحديث انتقاص المتقدمين في مجالاتهم، فترى المؤلف يهون من جهود السابقين ويصفهم بالحق طوراً وبالباطل أطواراً بالتخليط والتخبط، لكن ابن جني كان براءً من تلك الشئشئة المعروفة من أخزم، فهو في صدر «الخصائص» يذكر أن الأخفش قد سبقه إلى تأليف كُتَيْب في مقاييس العربية أو أصول النحو الذي هو أجل موضوعات الخصائص؛ فيقول: «على أن أبا الحسن قد كان صنَّف في شيء من المقاييس كُتَيْباً، إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذلك أننا بُنينا عنه فيه، وكفيناه كلفة التعب به، وكافأناه على لطيف ما أولاناه من علومه المسوقة إلينا، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا»⁽²⁾.

(1) الخصائص: 3 / 316.

(2) الخصائص: 1 / 2.

وعندما شرح تصريح المازني ذكر أنه سبق بكتب وقع فيها خلطٌ واضطراب، ثم أحسَّ بغلاظة الكلمة فبادر بالاعتذار قائلاً: «وليس هذا غصّاً من أسلافنا، ولا توهيناً لعلمائنا، كيف وبعلمهم نقندي، وعلى أمثلتهم نحتدي».⁽¹⁾

إنَّها لغة عزيزة جدًّا على ألسنة المؤلفين الطامعين في الشهرة، الطامحين إلى المجد الذين دأبوا على الصعود على أكتاف الآخرين ثم يدوسونهم، ويدَّعي كلُّ منهم أنَّه الفارس الذي لا يُجَارَى، والعالم الذي لا يُبَارَى.

ولم يكتفِ ابن جني بالثناء على أساتذته وإنَّ علَّوًا، بل رأيناه يُثنى على خصوم مدرسته الفكرية التي ينتمي إليها، فقد كان بصرى المذهب، مع ذلك يُثنى على الكسائي - وهو كوفي - قائلاً: «هذا إلى ما يُعرف عن عقل الكسائي وعفته وظلفه ونزاهته، حتى إنَّ الرشيد كان يُجلسه ومحمد بن الحسن على كرسيين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا لنهضته»،⁽²⁾ ويُثنى على ثعلب - وهو كوفي - على الرغم من أنَّه يرى خلاف رأيه قائلاً: «وهذا وإن كان مذهباً مدخولاً عندنا، وهو بضدَّ الصواب الذي هو مذهب سيبويه، فقد قال به رجلٌ يُعدُّ جبلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا، وهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها».⁽³⁾

وليس معنى تبجيل أهل العلم واحترام السلف إغماض العينين عن أقوال السابقين تحت دعوى أنَّه ليس في الإمكان أبدع مما كان، أو تحت ستار: إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مقتدون، فإنَّ الرجل يُعطى نفسه وغيره الحق كلَّ الحق في مناقشة السلف وسبر آرائهم وتوجيه أفكارهم، ثم الإعلان عن المخالفة لهم متى تحقَّق الخالف من صحة مقولته، دون غصٍّ من جهد القدماء أو تهوينٍ من قيمة علمهم إذ يقول: «فكل من فُرق له عن علةٍ

(1) المنصف؛ لابن جني: 3 / 1.

(2) الخصائص: 3 / 314.

(3) سر صناعة الإعراب، تحقيق: د. حسن هندراوي (وهي التي اعتمدتُ عليها كلياً، فإن رجعت إلى طبعة الحلبي أشرت إلى ذلك): 1 / 129، 130.

صحيحة، وطريق نهجٍ كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره، إلّا أنّنا مع هذا الذي رأيناه وسوّغنا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدّم نظرها، وتالت أواخر على أوائل، وأعجازًا على كلال، والقوم الذين لا نشكّ في أنّ الله سبحانه وتقدس أسماؤه قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة في الترحيب له والتعظيم، وجعله ببركاتهم وعلى أيدي طاعتهم خادماً لكتابه المنزّل، وكلام نبيه المرسل، وعوناً على فهمهما، ومعرفة ما أمر به أو نهى عنه الثقلان منهما، إلّا بعد أن يناهضه إقتاناً، ويثابته عرفاناً، ولا يخلد إلى سانح خاطره ولا إلى نزوة من نزوات تفكره، فإذا هو حذا على هذا المثال، وباشر بإنعام تصفّحه أحناء الحال، أمضى الرأي فيما يُريّه الله منه، غير معارّ به، ولا غاضّ من السلف - رحمهم الله - في شيء منه»⁽¹⁾.

وهذه العبارات حريّة بأن تُكتب بهاء الذهب في تاريخ الفكر العربي، إذ جمع فيها الرجل معاني الحرية في أبهى مجاليها، فاتحاً باب التجديد والاجتهاد في علوم العربية مع وجوب احترام السلف وعدم الغض منهم، وأين هذا من دعاة المعاصرة الآن؟!

(1) الخصائص: 1/ 191.

أسلوبه

دَرَجَ جُلُّ النَّحَاةِ مِنْ قَبْلِ ابْنِ جَنِّيٍّ وَمِنْ بَعْدِهِ عَلَى كِتَابَةِ النُّحُوِّ بِأَسْلُوبٍ مَعْقَّدٍ يَجْعَلُ الْقَارِئُ يَتَعَثَّرُ فِي صَخُورِ الْعِبَارَاتِ وَجَنَادِلِ الْأَوْزَانِ، كَمَا يَتَعَثَّرُ السَّارِي فِي مَفَاذِرِ بَالِغَةِ الْوَعُورَةِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ عِزْوَفِ النَّاشِئَةِ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ الشَّرِيفِ، حَتَّى إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ مُؤَدِّبَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَمَّا شَرَعَ يَتَعَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ صُدِمَ بَعْدَ فِتْرَةٍ بِأَحْجَارٍ مِنَ الْأَوْزَانِ الصَّرْفِيَّةِ، فَقَالَ: ⁽¹⁾

قَدْ كَانَ أَخَذَهُمْ فِي النَّحْوِ يُجَبِّنِي حَتَّى تَعَاطَوْا كَلَامَ الرُّنْجِ وَالرُّومِ
لَمَّا سَمِعْتُ كَلَامًا لَسْتُ أَفْهَمُهُ كَأَنَّهُ زَجَلُ الْغُرَبَانِ وَالْبُومِ
تَرَكْتُ نَحْوَهُمْ وَاللَّهُ يَعْصِمُنِي مِنَ التَّقَحُّمِ فِي تِلْكَ الْجَرَائِمِ

وقد ظلت تلك الطريقة شَنِئَةً لِلنَّحَاةِ دَهْرًا طَوِيلًا، غَيْرَ أَنَّ ابْنَ جَنِّيٍّ - ذَلِكَ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ - يُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ مَنْ تَمَرَّدَ عَلَى تِلْكَ الطَّرِيقَةِ الْعِقَامِ، فَإِذَا هُوَ يَكْتُبُ اللُّغَةَ وَالنُّحُوَّ بِلِسَانِ الْأَدَبِ، فَاِلْمِطَالَعِ كِتَابَهُ يَجِدُ رَوْنَقَ الْفَصَاحَةِ وَمَاءَ الْبَلَاغَةِ يَتَرَقَّرُ فِي صَفْحَةِ كِتَابِهِ فَيَمْنَحُهَا الْخِلَافَةَ وَالطَّلَاوَةَ الَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ النُّفُوسِ وَتُجَبِّئُهَا إِلَى الْقُلُوبِ، وَتَجْعَلُ النَّاشِئَةَ أَكْثَرَ أُسْرًا بِهَا وَأَعْظَمَ ارْتِيَاخًا لَهَا، بِمَا فِيهَا مِنْ جَمَالِ الْعَرَضِ، وَرُوعَةِ وَرُودِ الْمُحَسَّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ عَلَى لِسَانِهِ عَفْوًا دُونَ تَكْلُفٍ.

استمع إلى قوله في الثناء على سيبويه الذي أعطاه الحق الكامل في القياس على كلام العرب: «ولما كان النحويون بالعرب للاحقين، وعلى سمتهم آخذين، وبألفاظهم مُتَحَلِّين، ولمعانيهم وقصودهم آمين، جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه، وشرع أوضاعه،

(1) طبقات النحويين واللغويين؛ للزبيدي، ص 125، 126.

ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبيع أحضانه، وزم شوارده، وأفاء فوارده، أن يرى فيه نحوًا مما رأوا، ويحذوا على أمثلتهم التي حذوا⁽¹⁾.

ويقول في معرض الحديث عن وصول المحدثين إلى درجة القدماء إذا جدّوا واجتهدوا: «فمن أمدّه الله بصفاء القريحة، وأيّده بمضاء الخاطر والروية، وواصل الدرس، وأجشم النفس، وهجر في العلم لذاته، ووهب له أيام حياته، امتاز من الجمهور الأعظم، ولحق بالصدر المقدّم، ولحظته العيون بالنفاسة، وأشارت إليه الأصابع بالرياسة، وكان موقفًا لما يرفعه ويُعليه، مسددًا فيما يقصده له وينتحيه»⁽²⁾.

فمن يقرأ هذين النصين وغيرهما من نصوص ابن جني يلحظ - علاوة على الأدب الجمّ والإنصاف المطلق للقدماء والمحدثين، واعتدال الدعوة إلى التجديد - روعة السجع المتلاحق الذي يُكسب العبارة موسيقى غاية في العذوبة، وجمال الإطناب غير الممل الذي يطلب معه السامع المزيد ثم المزيد، ناهيك عن عباراته القوية الجزلة التي أصبحت معلّمًا من معالم أسلوبه، ذلك الأسلوب الذي أصبح مضرب المثل في الفصاحة، وليس أدل على ذلك من قول الأبيوردي في أبي عليّ المرزوقي شارح الحماسة: «وهو يتفاح في تصانيفه كابن جني»⁽³⁾.

وقد وضع الدكتور أسعد طلس يده على تلك السمة العظيمة قائلاً: «ولم يكن ابن جني مُحسنًا قول الشعر فحسب، بل كان مُجيدًا في النثر أيضًا، وليس أدلّ على ذلك من هذه اللغة الحلوة، وهذا الأسلوب الذي نراه في كتبه العلمية ك (سر الصناعة، والخصائص)، فأنا لا أعرف نحوياً أو صرفياً أو بلاغياً كتب النحو والصرف والبلاغة بلغة كلّها سلاسة وعذوبة، وكلّها جمال ولذّة، وبأسلوب فني رائع إلا الإمام أبا الفتح بن جني، والإمام عبد القاهر الجرجاني - رحمهما الله»⁽⁴⁾.

(1) الخصائص: 1/ 309، 310.

(2) المنصف؛ لابن جني: 1/ 6.

(3) معجم الأدباء: 2/ 19.

(4) أبو الفتح بن جني؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م 30، ج 4، ص 613.

وقد كان الدكتور أسعد طلس موفّقًا إلى حدّ بعيد في الجمع بين هذين الإمامين العظيمين؛ فكلامهما من النحاة الحدّاق الذين ألّفوا في العربية نحوًا وصرفًا، وكلاهما من البلاغيين المهرة الذين أسّسوا نظريات هذا العلم، وكلاهما جمع في أسلوبه بين دقة العلم وحلاوة العبارة، حتى إنّ القارئ لهما ليتحير؛ أهو أمام عقل عالم متفلسف؟ أم أمام ريشة فنان متأثّق؟ لما يرى من تعانق جسد العلم وروح الفن تعانقًا حميمًا في أسلوبيهما البديع.

والذي لا شك فيه أنّ شيخ البلاغيين عبد القاهر قد حذا حذو ابن جنّي في عباراته، وأوضح ظاهرة لمحتها في هذا المجال ظاهرة التمهيد للأبواب، يقول ابن جنّي مثلاً في تقديم باب (فك الصيغ): «اعلم أنّ هذا موضع من العربية لطيف، ومغفول عنه، وغير مأبوه له، وفيه من لطف المأخذ وحسن الصنعة ما أذكره لتعجب منه وتأنق له»⁽¹⁾.

فوجدنا الإمام عبد القاهر يحذو حذوه تمامًا؛ فيقول مثلاً في التقديم لباب (التقديم والتأخير): «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا تزال يفتّر لك عن بديعة، ويُفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً، يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»⁽²⁾.

ويقول مقدّمًا باب (القول في الحذف): «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأنّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبّن»⁽³⁾.

فأمثال هذه السجعات الساحرة وتلك اللغة الشاعرة إنّما تسربت إلى شيخ البلاغيين عبد القاهر من خلال قراءة متأنية لكتب ابن جنّي التي أكبّ عليها دهرًا طويلاً، والتي تصل فيها هذا السجعات إلى حد الظاهرة، حتى إنك تجدّها سافرة في عناوين الأبواب مثل: باب في

(1) الخصائص: 3/ 31.

(2) دلائل الإعجاز؛ تحقيق: محمود شاكر، ص 106.

(3) دلائل الإعجاز، ص 146.

تقاود السماع وتقارع الانتزاع، باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف، باب في اتفاق المصاير على اختلاف المصادر، باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية.

وفي أثناء كلامه له تعقيبات جيدة على المسائل اللغوية يتضح من خلالها منهجه الأسلوب الساهر الحافل بالسجع كقوله: «وستراه فتجده طريقاً غريباً، ومسلكاً من هذه اللغة شريفاً عجيباً»، وقوله: «وإذا قام الشاهد والدليل، وضح المنهج والسييل»، وقوله: «لكان استطالة على الحرفين، وهتكاً للحرمتين»، وقوله: «فإنه جيد في معناه، ونافع في سواه، مما هو شرواه».⁽¹⁾

وقد كان هذا الأسلوب البليغ مدعاةً لأن يفهم بعض الباحثين أنه تولى ديوان الإنشاء قائلاً: «وفي الحقيقة أنه كان كاتباً من خير كتّاب زمنه، وليس أدل على ذلك من توليه ديوان الإنشاء لسيف الدولة الحمداني، ولعضد الدولة الديلمي».⁽²⁾

ولست أدري من أين استقى الدكتور الفاضل هذه المعلومات، وهل كان لسيف الدولة ديوان إنشاء أو لا؟ وهل يُعقل أن يتولى ابن جني هذا الديوان وحوله في حلب أئمة أقوى منه عوداً وأعظم خطراً في ذلك الوقت؟

وأما توليه لعضد الدولة؛ فلعله استفاد ذلك من قول القفطي: «وخدم أبو الفتح بن جني البيت البويهري، عضد الدولة وولده صمصام الدولة، وولده شرف الدولة، وولده بهاء الدولة، وفي زمانه مات، وكان يلازمهم في دورهم ويؤايتهم».⁽³⁾

وليس في العبارة ما يدل على تولى ديوان الإنشاء، وإنما تدل على أنه كان مقرّباً عندهم يأمنون إليه، وينال من برهم وألطفهم، ولا يراد أنه يلي لهم عملاً من أعمال الديوان.⁽⁴⁾

(1) انظر: الخصائص: 1/5، 1/13، 2/474، 3/165 على الترتيب.

(2) أبو الفتح بن جني؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م30، ج4، ص610.

(3) إنباه الرواة: 2/340.

(4) مقدمة الخصائص: 1/61.

لقد حظى الرجل عند بنى بويه عن طريق شيخه أبي عليّ الفارسيّ الذي كان من أصفياء البيت البويهيّ وخواصّه، لكنّه لم يتول ديوان الإنشاء، وإنّما ظلّ يعمل بالتدريس في بغداد التي ألقى فيها عصا التسيار إلى أن لحقّ بالرفيق الأعلى، يفهم ذلك من قول الخطيب البغدادي: «سكن بغداد ودرس بها العلم إلى أن مات»⁽¹⁾. ولو أن ابن جنّي قد عمل في ديوان الإنشاء لنص على ذلك الخطيب البغدادي وغيره من المؤرخين المتقدمين، ولترك لنا ابن جنّي كتاباً في الإنشاء كما ترك كثير من تولوا هذا المنصب الخطير.

والأثر الإنشائي الوحيد الذي يدخل في ضمن النثر الفني هو خطبة النكاح التي نقلها ياقوت من خط ابن جنّي، وحفظها كاملة في كتابه العظيم، ومطلعها: «الحمد لله فاطر السماء والأرض، مالك الإبرام والنقض، ذي العِزّة والعلاء، والعظمة والكبرياء، مبتدع الخلق على غير مثال، والمشهود بحقيقته في كل حال، الذي ملأت حكمته القلوب نوراً، فاستودع علم الأشياء كتاباً مسطوراً...»⁽²⁾.

والخطبة تشغل صفحتين كاملتين من معجم الأدباء فليرجع إليها من شاء، حيث يجد فيها خصائص أسلوب ابن جنّي سافرة دون قناع، لتكتحل عينه برؤية السجع والإطناب والطباق والمقابلة والمزاوجة التي جاءت عفواً دون تكلف، والتي لم توهن من العبارة مطلقاً، بل ظلت لغته كعادته محافظة على قوتها وجزالتها ورصانتها.

(2) تاريخ بغداد: 311 / 11.

(3) معجم الأدباء: 3 / 467، 468.

مذاهبه الفكرية

لا شك أن لكل عالم منحى فكرياً معيناً، يولى وجهه شطره، ويترسم معالمه في كل الاتجاهات، وانضواء العالم تحت لواء تيار معين تتعاون عليه عوامل مختلفة تجليها مواضع الزمان والمكان والتكوين الفكري للعالم، غير أن المدقق يستطيع أن يلمح خيطاً دقيقاً يجمع سلك الاتجاهات جميعاً سياسية كانت أم عقدية أم فقهية أم نحوية.

والخيط الدقيق الذي نلمحه في موقف صاحبنا من هذه الاتجاهات الفكرية هو ميله إلى «الحرية الفكرية»؛ فابن جني من أنصار الفكر الحر الذي يأبى التقليد أو الانسياق الأعمى وراء الآراء، نعم إنه يقدر السلف كل التقدير، ولكن هذا التقدير لا يتحول إلى وثاق يحجم رؤيته، ويكبّل إرادته الحرة، ويغتال شلالات الإبداع والبراعة في نفسه، ويجعل منه تابعا يسبح بحمد الآخرين، الذين لا يتنفس إلا من رئاتهم، ولا يتغنى إلا بحناجرهم.

ومن ثم وجدنا ابن جني يترسم منهج كل فرقة أو مذهب يدعو إلى حرية التفكير، وإلى التجديد المتزن، وإلى الثورة على قوى الرجعية والجمود.

* **فمن الناحية العقدية:** نجد ابن جني مُعتزلياً من الطراز الأول، ومعلوم أن المعتزلة هم حملة لواء الحرية الفكرية في فكرنا الإسلامي، فقد «كان ظهور المعتزلة يمثل الاتحاد التحرري الصاعد في التفكير الإسلامي، وكانت عقليتهم التي نمت في ظلال ذلك المزيج الهائل من الثقافات العقلية المختلفة مؤذنة بقيام مرحلة ثقافية جديدة تتسم بالعمق والخصوبة وتمجيد العقل والاعتزاز بحرية التفكير».⁽¹⁾

ولذا نجد طائفة ضخمة من علماء العربية ينجحون إلى هذا المذهب منهم: الجاحظ، والنظام، وأبو عليّ الفارسي، وأبو سعيد السيرافي، والشريف المرتضى، والرّماني، والقاضي عبد الجبار، والزّخشري وغيرهم كثير.

وقد نضح الفكر الاعتزالي على رؤية ابن جني بجلاء شديد من ذلك:

(1) أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، د. عبد الحكيم بلبع، ص 154.

(1) في خطبة كتابه (الخصائص) نجد قوله: «الحمد لله الواحد العدل القديم». (1)
وكلمة «الواحد العدل» تدل على انتبائه إلى المعتزلة؛ الذين يسمّون بأهل العدل والتوحيد (2).

(2) ما ذكره في باب ما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينيّة؛ إنّها هو تفسير لآيات على مقتضى مذهب المعتزلة الذين ينجحون إلى تأويل كل ما يُشتمّ منه رائحة التشبيه لله بالحوادث، نجد مثلاً قوله في لهجة شديدة موجهة إلى من ينجحون إلى التفويض مؤمنين بالظاهر: «فأمّا قول من طغى به جهله، وغلبت عليه شقوته حتى قال في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْنُفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: 42] إنّهُ أراد به عضو القديم، وإنّما جوهر كهذه الجوهر الشاغلة للأماكن، وإنّها ذات شَعْر، وكذا وكذا مما تتابعوا في شناعته، وركسوا في غوايته، فأمرُ نحمد الله على أن نَرَهنا عن الإمام بحراه، وإنّما الساق هنا يراد بها شدة الأمر كقولهم: قد قامت الحرب على ساق». (3).

وقد قام بتأويل آيات كثيرة على هذا النسق موافقاً المعتزلة الذين اتجهوا هذا المتجه من أجل «نفى التشبيه عن الله في كل وجه: جهةً ومكاناً وصورةً وجسمًا وتحيزًا وانتقالًا وزوالًا وتغيرًا وتأثراً، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسمّوا هذا النمط توحيداً». (4)

* ومن الناحية السياسيّة: نجد ابن جنّي يميل إلى التشيع، والشيعة فرقة دينيّة إلا أنّها قامت أصلاً نتيجة لصراعات سياسيّة معروفة إبان الفتنة الكبرى، والعلاقة جد وثيقة بين الشيعة والمعتزلة حتى قال مיתز: «إنّ الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولا بدّ أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة» (5)، وإذا تغاضينا عن كلمة (ورثة) وما

(1) الخصائص: 1 / 1.

(2) الملل والنحل؛ للشهرستاني (بهامش الفصل): 54 / 1.

(3) الخصائص: 3 / 254، والآية (42) من سورة القلم، وانظر: الكشاف: 4 / 593 لتجد هذا التفسير الاعتزالي.

(4) الملل والنحل: 1 / 55.

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 1 / 106.

توحى به من انتهاء الاعتزال ليخلفه التشيع وهي فكرة خاطئة جملة وتفصيلاً، فإننا نجد كلامه صحيحاً، حيث جمع عدد من الفضلاء بين المذهبيين، لعل من أبرزهم صاحب بن عبّاد؛ الذي عانق بين الفكرتين عناقاً رائعاً في قوله: ⁽¹⁾

لَوْ شَقَّ قَلْبِي لَرَأَوُا وَسْطَهُ سَطْرَيْنَ قَدْ خُطَّ بِلا كَاتِبِ
الْعَدْلُ وَالتَّوْحِيدُ فِي جَانِبِ وَحُبُّ آلِ الْبَيْتِ فِي جَانِبِ

فلا غرو أن نجد ابن جني شيعياً مُعْتَزِليّاً كشيخه أبي عليّ الفارسي؛ اللذين خدما معاً البيت البويهي وهم شيعة قلباً وقالاً.

كما كان ابن جني من أصحاب الشريف الرضي؛ الذي مدحه ورثاه وصلى عليه ميتاً وهو من أعيان الشيعة، بل إن ابن جني قد نزل على الشريف أبي عليّ الجواني نقيب العلويين، وأملى عنده مسائل سمّاها الواسطية، ⁽²⁾ وهو دليل على أنه كان مقرباً إليهم، حتى إنه لينزل عليهم مدة طويلة تكفي لتأليف كتاب.

ولذا نجد العاملي يُترجم له في أعيان الشيعة، ⁽³⁾ ومحمد باقر الموسوي في روضات الجنات، ⁽⁴⁾ وورد قسم من مؤلفاته في الذريعة إلى تصانيف الشيعة. ⁽⁵⁾

ثم إن الفكر الشيعي ناضح بجلاء على آثاره، فهو لا يذكر الإمام عليّ بن أبي طالب إلا مشفوعاً بالصلاة؛ كقوله: «ومنه قول عليّ - صلوات الله عليه - : إلى الله أشكو عُجْرِي

(2) أمالي المرتضى: 1 / 400.

(3) إنباه الرواة: 2 / 340.

(4) أعيان الشيعة؛ للعاملي: 39 / 209.

(5) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات؛ ص 466.

(6) الذريعة إلى تصانيف الشيعة: 7 / 163.

وَبُجْرِي»⁽¹⁾.. أو مشفوعاً بالسلام؛ كقوله: «قال أمير المؤمنين - عليه السلام - في بعض كلامه: وأقلقوا الأسيايف في الأغهاد قبل السلّة»⁽²⁾.

بل يكتب ابن جنّي في ختام كتابه (المحتسب) رؤيا رآها بعض من يعتاد القراءة عليه؛ إذ رآه في مجلس وقد أتاها رجل له رواء ومنظر، فأعظمه ابن جنّي ثم قال له الرجل: أتمم كتاب الشواذ الذي عملته فإنّه كتاب يصل إلينا، ثم نهض فسأل الرائي بعض الحاضرين: مَنْ هذا؟ فقالوا: علي بن أبي طالب عليه السلام»⁽³⁾. وواضح أنّ الأسلوب يعكس لغة الشيعة في الحديث عن عليّ بن أبي طالب، كما أنّ الخبر ذو مسحة شيعية ظاهرة، فلعله من موضوعات الشيعة، والله أعلم.

ولعلّ في هذا ردّاً كافياً على من زعم أنّ ابن جنّي لم يكن شيعياً، وإنّما كان يصانع الشيعة ويحطب في حبلهم ويأخذ أخذهم»⁽⁴⁾.

ولست أدري ما الداعي إلى اتهام الرجل بالمداراة والنفاق وفكره مليء بتشيعه الظاهر، ولو كان له هووى في مذهب آخر لصدع برأيه غير مبال بازورار البيت البويهى، ولا مكترث بتلك المكانة القائمة على بالونة من النفاق.

*** ومن الناحية الفقهية:** فقد كان حنفياً، والأحناف هم أبطال الحرية في الفكر الإسلامى، وهم رواد مدرسة الاجتهاد والاستنباط والقياس في الفقه، وهم الذين لم يلغوا عقولهم أمام النصوص، بل أعملوا فيها فكرهم واستنبطوا منها أروع الأحكام التي توافق العقل ولا تصادم الشرع، ولا غرو فقد عاش إمامهم بالعراق، ذلك البلد الصاحب بكل التيارات

(1) الخصائص: 2 / 137.

(2) الفسر: 1 / 248.

(3) المحتسب: 2 / 277 بذيل النسخة، معجم الأدباء: 3 / 480.

(4) مقدمة الخصائص: 1 / 39، مقدمة سر صناعة الإعراب (ط. الحلبي): 1 / 34، ابن جنّي النحوي، ص 58.

الفكرية، والذي دارت على أرضه رَحَى معارك فكرية ضروس سقطت على آثارها قمم، واستطالت قامات أخر.

ولذا لم يتردد ابن جنّي في اتّباع مذهب الإمام أبي حنيفة الذي سهّل له طريق الاجتهاد في النص وفتح أمامه باب التجديد، وقد اعترف ابن جنّي بأنّ كتب الأحناف هي التي عبّدت للنحاة طريق الاجتهاد والاستنباط قائلاً: «وكذلك كتب محمد بن الحسن - رحمه الله - انتزع أصحابنا منها العلل، لأنّهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه، فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق»⁽¹⁾.

وليس أدلّ على انتمائه لهذا المذهب من أنّه عقد رسالة على مسألة من كلام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة في كتابه (الآيمان)؛ وهي: «قال محمد بن الحسن: إنّ قال: أيّ عبيدي ضربك فهو حرّ فضربه جميعهم عتقوا كلهم، ولو قال: أيّ عبيدي ضربته فهو حرّ ضرب واحدًا من عبيده عتق ذلك العبد، فإنّ ضرب غيره من بعده منهم لم يُعتق غير الأول وحده»⁽²⁾.

*** ومن الناحية النحوية:** كثر الخلاف حول مذهب النحوي؛ وقد عقد الدكتور فاضل السامرائي فصلاً شافياً في رسالته التي عنى فيها بابن جنّي نحويّاً، وسرد في ذلك الفصل خمساً وخمسين مسألة، مستندلاً على أنّه بصريّ المذهب، وليس كوفيّاً ولا بغداديّاً⁽³⁾.

أقول: على الرغم من اتّباع ابن جنّي مذهب أهل البصرة فإنّ الحرية الفكرية التي شرب من كأسها حتى الثمالة تأبى عليه أن يكون مذهب البصريين غُلاً في عنقه، ولا قيداً في فكره، ولا حائلاً دون التطلع إلى آراء الآخرين أيّاً كانوا، فهو مع الحق، والحق أحق أن يُتبع أينما حلّ وصقع، ففي مسألة تحريك الحرف الثاني الساكن إذا كان حلقياً نحو البحر والصخر يقول:

(1) الخصائص: 1/ 164.

(2) انظر: أبو على الفارسي؛ د. عبد الفتاح شلبي، ص 104، وقد ذكرها بروكلمان: 2/ 249 وقال: إنّها توجد بالفاتيكان.

(3) ابن جنّي النحوي، ص 245-290.

«ومذهب الكوفيين فيه أنّه يحرك الثاني لكونه حرفاً حلقياً، فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعه
كالبحر والبحر، والصخر والصخر، وما أرى القول من بعد إلاّ معهم، والحق إلاّ في
أيديهم»⁽¹⁾.

وفي المسألة نفسها يقول في موضع آخر: «ولا قرابة بيني وبين البصريين، لكنّها بيني وبين
الحق والحمد لله»⁽²⁾.

إنّ الفكر الحر الذي لا يعرف التعصب، ذلك الداء المقيت الذي يلقي غماماتٍ كثيفةً على
عين صاحبه، فإذا به ينكر الشمس في ضحاها، والقمر إذا تلاها، وإنه التجديد الذي يأبى
صاحبه أن يظل حبيس آراء القدماء على فضلهم، وإنّما هم رجال، ونحن رجال، ومتى كان
المفكر طليق العقل من عبودية المذهب، بريئاً من التعصب، فاتحاً عقله وقلبه لكل جديد فهو
مفكر حيّ بلا جدال، وفكره جدير بأن يحرك المياه الآسنة والبحيرات المتعفنة بما أُلقي فيها من
قمامات فكرية، لتجعلها أكثر حيوية وحركة وتجديداً.

(1) المحتسب في توجيه شواذ القراءات: 84 / 1.

(2) المحتسب: 167 / 1.

وفاته

وبعد رحلة قوامها الجد والعناء، وثمرتها الإفادة والعطاء؛ ذلك العطاء الممتد بلا حدود كان لا بدّ من أن تتوقف أقدام هذا الرَّحالة عن السعي ليلقى المصير المحتوم الذي هو غاية كل حيٍّ، وقد أجمعت المصادر على أنّه تُوفّي ببغداد يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة في خلافة القادر، وأنّه دُفن بالشويزي من مقابر بغداد بالقرب من قبر شيخه أبي على الفارسي.

ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا ابن الأثير الذي قال: ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة... وفيها تُوفّي عثمان بن جني النحويّ مصنّف اللُّمع وغيرها ببغداد،⁽¹⁾ ونقله عنه أيضًا أبو الفداء في المختصر⁽²⁾. ولا شك أنّ ابن الأثير الذي عاش في القرن السابع وهو ناقل يقينًا قد سها في النقل، أو التبت عليه قراءة التاريخ، أو نقله من نسخة محرّفة، لعل له عذرًا وأنت تلوم، ثم اتّبعه أبو الفداء حذوك النعل بالنعل.

وقد تولّى الصلاة عليه تلميذه النجيب الشريف الرضيّ، ذلك الشاعر الوفيّ الذي رثى أستاذه بقصيدة عامرة بالتفجّع ملأى بالأنين والعبرات على فقْد الرجل والأستاذ والصديق والعالم والأديب جميعًا، وقد افتتحها بقوله:⁽³⁾

أَلَا يَا قَوْمِي لِلْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ وَلِلْعَظْمِ يُرْمَى كُلَّ يَوْمٍ بَعَارِقِ
وَلِلدَّهْرِ يُعْرِى جَانِبِي مِنْ أَقَارِبِي وَيَقْطَعُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَصَادِقِ

وفيها:

لِتَبْكِ أَبَا الْفَتْحِ الْعُيُونَ بِدَمْعِهَا وَأَلْسُنًا مِنْ بَعْدِهَا بِالْمَنَاطِقِ

(1) الكامل في التاريخ: 9 / 179.

(2) المختصر في أخبار البشر: 2 / 136.

(3) ديوان الشريف الرضي: 2 / 63 وما بعدها.

شَقِيقِي إِذَا التَّاتَ الصَّدِيقُ وَأَعْرَضَتْ
 كَأَنَّ جَنَانِي يَوْمَ وَافَى نَعِيَّهُ
 فَمَنْ لَأَوَابِي الْقَوْلِ يَبْلُوعِرَاكَهَا
 إِذَا صَاحَ فِي أَعْقَابِهَا أَطْرَدَتْ لَهُ
 وَمَنْ لِّلْمَعَانِي فِي الْأَكِمَّةِ أُلْقِيَتْ
 تَسْمَ أَعْلَى طَوْدِهَا غَيْرَ عَائِرٍ
 طَوَى مِنْهُ بَطْنُ الْأَرْضِ مَا تَسْتَعِيدُهُ
 مَضَى طَيْبَ الْأَرْدَانِ يَارْجُ ذِكْرُهُ
 خَلَّائِقُ قَوْمِي جَانِبًا عَنْ خَلَائِقِي
 فَارَى أَدِيمٍ بَيْنَ أَيْدِي الْخَوَالِقِ
 وَيَحْذِفُهَا حَذْفَ النَّبَالِ الْمَوَارِقِ
 ثَوَانِي بِالْأَعْنَاقِ طَرْدَ الْوَسَائِقِ
 إِلَى بَاقِرٍ غَيْبِ الْمَعَانِي وَفَاتِقِ
 وَجَاوَزَ أَقْصَى دَحْضِهَا غَيْرَ زَالِقِ
 عَلَى الدَّهْرِ مَشُورًا بَطُونُ الْمَهَارِقِ
 أَرِيجَ الصَّبَا تَنْدَى لِعَرْنَيْنٍ نَاشِقِ

إلى آخر ما قال الشريف في رثاء أبي الفتح الذي فتح للغة والأدب ممالك مجهولة، وراض
 اللغة رياضة الحاذق؛ فدنا له قصيها، ودان له عصيها، وذلَّ أوابدها، وملك فرائدها، فرحمه
 الله رحمة واسعة.

المبحث الثاني: مكونات شخصيته النقدية

* توطئة:

يكاد يُجْمَعُ النقاد على أنَّ مَلَكََةَ النِّقْدِ والقدرة على تمييز الجيّد من الرديء إنّما تطير بجناحين، أو تقوم على ساقين هما: الموهبة والثقافة.

أمّا عن الموهبة؛ فهي تلك القدرة الفطريّة على النِّقْدِ، إذ لا بدّ أن يولد الناقد ولديه الاستعداد لممارسة النِّقْدِ، ذلك الاستعداد الذي يقوم على الذوق المُرْهَف والحسّ الفنّان، وسرعة التأثير والانفعال بالعمل الأدبيّ، وقدرة اللّمع الخاطفة للعيب ومعرفة حقيقته، وهي قدرة فطريّة لا دخل للمرء فيها، وإنّما هو الذي ينمّيها، فقد يوجد العالم النّحْرِير الذي هضم ألواناً من الثقافات، والقارئ المتبحّر الذي أتى على كل طارف وتليد في العربية، ولكنّه يقف عاجزاً أمام النّصّ، لا يقدر على اقتحامه، ولا يتمكّن من المغامرة بالسفر في عالمه.

إنّه راوية أو زاملة شعر من هؤلاء الذين قال عنهم مروان أبي حفصة: ⁽¹⁾

زَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعُمْرُكَ مَا يَذَرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

وقد أشار شيخ البلاغيين عبد القاهر إلى أنّ هذا الذوق ليس كسباً ولا علماً وإنّما هو فطرة وجبلة بحيث لا يمكن تعليمه لمن غاض فيه ماء القريحة والموهبة، حيث يقول عن هؤلاء المحرومين من الذوق: «فليس الداء فيه بالهين، ولا هو بحيث إذا رُمّت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مُسْعِفًا، والسعي مُنْجِحًا، لأنّ المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها أمور خفيّة ومعانٍ رُوحِيّة، أنت لا تستطيع أن تنبّه السامع لها، وتحدث له علماً بها، حتى يكون مُهَيَّأً لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما

(1) شعر مروان بن أبي حفصة؛ ص 58.

في نفسه إحساسًا بأنَّ من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيهما المزية على الجملة، ومنَّ إذا تصفح الكلام وتدبَّر الشعر فرَّق بين موقع شيء منها وشيء⁽¹⁾.

فهذا التهيؤ وتلك الطبيعة إنَّما هي الفطرة والموهبة التي يولد بها الناقد ولا تُكتسب، والتي تمنحه نورًا كأنَّه الوحي أو الإلهام يسترشد به في اقتحامه غيابة النص، وهو آمن من الضلال في دروبه - وقد فطن ابنُ جني إلى أهمية هذه الموهبة التي هي وحيٌّ من الله تعالى، فإذا هبط ضاءت جوانب النص، ولاحت منه رؤى كانت من قبل محجَّبة وراء أفتنة النص، وإن انقطع غامت الرؤية وانقطع الاتصال؛ حيث يقول: «وحدَّثني أبو عليّ قال: قلت لأبي عبد الله البصريّ: أنا أعجب من هذا الخاطر في حضوره تارةً ومغيبه أخرى، وهذا يدل على أنَّه من عند الله، فقال: نعم هو من عند الله، إلَّا أنَّه لا بدَّ من تقديم النظر، ألا ترى أنَّ حامدًا البقال لا يعرض له.

ومن طريف الحديث هذا الخاطر أنَّني كنت منذ زمانٍ طويل رأيت رأيًا جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر:

وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى رَجُلَيْنِ مُعْتَدِلًا فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنَ الشَّجَرِ

ولم أثبت حينئذ شرح حال الجمع بينهما؛ ثقةً بحضوره متى استحضرتَه، ثم إنِّي الآن - وقد مضى لي سنون - أعانُ الخاطر وأستثمده، وأفانيه وأتودِّده، على أن يسمح لي بما كان أرائيه من الجمع بين معنى الآية والبيت، وهو معتاضٌ متأبٍّ، وضنينٌ به غير مُعْطٍ⁽²⁾.

وفي ردِّ أبي عبد الله البصري على أبي عليّ إشارة إلى الجناح الثاني من جناحي الملكة النقدية وهو الثقافة؛ التي لا تتمُّ إلا بمخالطة كلام العرب، وطول الممارسة الفاهمة، وإدامة النظر في الدقيق والجليل من أمر اللغة، وقوام ذلك فُهم اللغة متناً ونحوًا وصرْفًا، وقراءة شعر الشعراء في شتى العصور قراءة فاهمة غير قانعة بالسطح، بل تائقة إلى الغوص في الأعماق، ثم التمرُّس

(1) دلائل الإعجاز؛ تحقيق: محمود شاكر، ص 547.

(2) الخصائص: 1/ 208، والبيت الذي استشهد به نسبه ابن الأعرابي لعبد أسود من عبيد بجيلة، ذكر ذلك صاحب الأماشي الذي أورده مع ثلاثة أبيات أخرى [الأماشي: 2/ 183].

بنقد السابقين، ومعرفة كيفية محاوره النص، وكيف ترد الأسئلة؟ وكيف يكون الجواب؟ ومن قديم قال ابن سلام الجُمَحِيّ: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما تثقفه اللسان»، ثم يقول: «وإنَّ كثرة المدارس لتُعدي على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به»⁽¹⁾.

وقد كان نصيب ناقدنا من هذين الجناحين موفورًا، حيث فُطِرَ على ذكاء نادر، وقدرة غير عادية على الفهم والاختحام والمغامرة، ورهافة حسٍّ بمعاني الكلام، بحيث يتحير قارئ فكره من سيل الأسئلة والأجوبة التي يوردها الرجل دون أن تجول لنا بخاطر.

وأما عن ثقافته؛ فحدث عنها ولا حرج فهو «القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب»⁽²⁾ وهم يعنون بالأدب كل ما يتعلق بأمر اللغة من تلك العلوم المتشعبة التي خاض ناقدنا غمارها بقوة واقتدار، بحيث يمكن أن يوصف بأنه دائرة من دوائر المعارف اللغوية.

وبعد حيازة الموهبة والثقافة تأتي عوامل أخرى تختلف من ناقدٍ إلى ناقدٍ تؤثر في صقل الموهبة، وتلوينها بلون معين، وتزيد من قدرة الأديب على ممارسة النقد الفاهم أو الفهم الناقد.

(1) طبقات فحول الشعراء: 1/ 5 - 7.

(2) يتيمة الدهر: 1/ 137.

أولاً: الأصل الروميّ

مهما تباينت آراء اللغويين والمؤرّخين حول كلمة (جَنِّي) ما أصلها؟ وَمِمَّ عُرِّبَتْ؟ وما معناها؟⁽¹⁾ فَإِنَّ الثابت الذي لا شكّ فيه أَنَّ ابنَ جَنِّي ينحدر من أصلٍ رومي، فقد كان أبوه جندياً رومياً، ثم وقع في الأسر، وآل أمره إلى سليمان بن فهد الأزديّ.

وقد أعرب ابن جَنِّي عن هذا الأصل بما لا يدع مجالاً للشك حيث قال:⁽²⁾

فَإِنْ أُصْبَحَ بِلا نَسَبٍ	فَعَلِمِي فِي الْوَرَى نَسَبِي
عَلَى أَنِّي أُؤُولُ إِلَى	قُرُومٍ سَادَةٍ تُجَبِّ
قِيَاصِرَةٍ إِذَا نَطَقُوا	أَرَمَ الدَّهْرُ ذُو الْخُطْبِ
أُولَاكَ دَعَا النَّبِيَّ لَهُمْ	كَفَى شَرَفًا دُعَاءَ نَبِي

فهو يُقر بانتمائه إلى الروم، أولئك السادة النجباء، القياصرة الخطباء، الذين ارتدوا حُللاً من المجد بدعاء النبي ﷺ لهم، حيث إنّه لما كتب إلى كسرى، فمزّق كتابه، قال: «مزّق الله مُلكه».. ولما كتب إلى قيصر فطواه، ورفعته وأحسن الردّ، قال: «ثَبَّتَ اللهُ مُلكه»⁽³⁾.

وهنا نحاول الإجابة عن سؤالين؛ أولهما: هل تُشتمُّ من هذه الأبيات رائحة الشعوبية؟
وثانيهما: ما مدى تأثيره بالعقلية اليونانية في مضمار النقد الأدبي؟

* هل تُشتمُّ منه رائحة الشعوبية؟

الحقُّ أَنَّ ابنَ جَنِّي براء من تلك الدعوى اللخناء كلّ البراءة، وفكره كان عربياً حتى النُّخاع، ومؤلفاته تنطق بالحب المتدفق للعرب؛ حبّاً لا تشوبه شائبة، وأدلة ذلك ما يلي:

- (1) انظر: مقدمة الخصائص: 10 / 1، ابن جني: أبو الفتح عثمان - مقال المقتطف، ص 153، تاريخ الأدب العربي؛ كارل بروكلمان: 244 / 2، ظهر الإسلام؛ أحمد أمين: 68 / 1، يوميات العقاد: 328 / 2.
- (2) معجم الأدباء: 462 / 3، وفيات الأعيان: 246 / 3، نزهة الألباء؛ ص 244، إنباه الرواة 335 / 2. أرم: سكت، ورؤيت أزم (بالزاي) بمعنى سكت أيضاً؛ كما في «حاشية البغدادى على شرح بانت سعاد»: 201 / 2، ورؤيت أرموا بمعنى: أسكتوا؛ كما في «البداية والنهاية»: 354 / 11.
- (3) انظر: فتح الباري؛ ط. السلفية: 58 / 1.

(1) أعلن ابن جني ولاءه للعرب مطلقاً، حيث كان يفتخر بأنه أزدى بالولاء، ولذا نراه يفخر بالعرب فخراً يعادل إن لم يزد على فخر العرب بأنفسهم.

يقول في الذب عن العرب وعن ذكائهم: «فإن قلت: ومن أين تعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر واستشفتته، وعُنيت بأحوال وتبعته، حتى تحامت هذا الموضع الذي نسبته إليها، وزعمته مراداً لها، وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعاً وأيبس طيناً من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق، الذي لا يصح لذي الرقة من أن يتصوره، إلا بعد أن توضّح له أنحاءه، بل أن تشرح له أعضاؤه؟

قيل له: هيهات! ما أبعدك عن تصور أحوالهم، وبُعد أغراضهم، ولطف أسرارهم».⁽¹⁾

ويقول في موضع آخر مادحاً العرب: «لأن الله سبحانه إتيها هداهم لذلك، ووقفهم عليه؛ لأن في طباعهم قبولاً له، وانطواءً على صحة الوضع فيه، لأنهم مع ما قدّمناه من ذكر كونهم عليه في أول الكتاب من لطف الحس وصفائه، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه، لم يؤثروا هذه اللغة الشريفة، المنقادة الكريمة إلا ونفوسهم قابلة لها، مُحسّنة لقوة الصنعة فيها، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها».⁽²⁾

وهي لغة كما نرى تشي بنهر الحب المتدفق للعرب الذين وهبوا من صفاء الفكر وتوقد الذهن وجودة القرينة أعظم مقدار.

(2) أعلن ابن جني شغفه بالعربية، التي شرب من كأس محبتها حتى الثمالة، فجرى حبها مجرى الدم في عروقه، وخامر كل ذرة من ذرات كيانه، استمع إلى قوله: «لو أحسست العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة وما فيها من الغموض والرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلاً عن التقديم لها والتنويه منها».⁽³⁾

(1) الخصائص: 1/ 73.

(2) الخصائص: 1/ 240.

(3) الخصائص: 1/ 243.

وكأنه يُفاخر العجم بمن فيهم الروم بهذه اللغة الساحرة الشاعرة التي لا يعرف أسرارها إلا لطيف الحس مرهف الوجدان.

ولذا نجده في أبيات أخرى يفتخر بأنه من أهل الأدب؛ أي المعرفة بكل أسرار العربية وعلومها قائلاً: ⁽¹⁾

وَحُلُوْ شَمَائِلِ الْأَدَبِ مُنِيفٍ مَرَاتِبِ الْحَسَبِ
أَخِي فَخْرٍ مَفَاخِرُهُ عَقَائِلُ عَقْلَةِ الْأَدَبِ
لَهُ كَلَفٌ بِمَا كَلَفَتْ بِهِ الْعَمَاءُ مِ الْعَرَبِ
بَيْتٌ يُفَاتِشُ الْأَنْقَابَ (م) عَنْ أَسْرَارِهَا الْعُيُوبِ

(3) أَنَّ الْأَبْيَاتَ الَّتِي فَخَرُ فِيهَا ابْنُ جَنِّي بِأَصْلِهِ الرُّومِيَّ إِنَّمَا يَرِيدُ بِهَا أَنْ يَنْفِي عَنْ نَفْسِهِ ضَعْفَ النِّسْبِ فَحَسَبَ، فَهُوَ يَقُولُ أَنَّهُ إِذَا افْتَقَدَ النِّسْبَ الْعَرَبِيَّ الصَّرِيحَ فَلَيْسَ ضَائِعًا وَلَا لَقِيطًا، وَإِنَّمَا لَهُ أَبَاءُ شَرْفَاءَ، وَفِي الْأَبْيَاتِ نَفْسُهَا يَفْتَخِرُ بِعِلْمِهِ الَّذِي هُوَ نَسَبُهُ، وَمَا عِلْمُهُ إِلَّا لُغَةُ الْعَرَبِ، وَيَفْتَخِرُ بِدَعَاءِ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ لَهُمْ، وَأَيْنَ هَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ مَوْقِفِ ابْنِ الرُّومِيِّ أَحَدِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ الَّذِي شَرِبَ مِنْ كَأْسِ الشُّعْبِيَّةِ الْبَغِيضَةِ، وَتَلَفَّعَ بِأَسْمَالِ كِرَاهِيَةِ الْعَرَبِ حَتَّى النِّخَاعَ قَائِلًا: ⁽²⁾

قَدْ تُحْسِنُ الرُّومُ شِعْرًا مَا أَحْسَنَتْهُ الْعَرَبُ
يَا مُكْرِمَ الْمَجْدِ فِيهِمْ أَلَيْسَ مِنْهُمْ صُهَيْبُ؟

أو قوله: ⁽³⁾

إِنْ لَمْ أَزُرْ مَلِكًا أَشْجَى الْخُطُوبَ بِهِ فَلَمْ يَلِدْنِي أَبُو الْأَمْلَاقِ يُونَانُ
بَلْ إِنْ تَعَدَّتْ فَلَمْ أَحْسِنْ سِيَاسَتَهَا فَلَمْ يَلِدْنِي أَبُو السُّوَّاسِ سَاسَانُ

أو قوله: ⁽¹⁾

(1) معجم الأدباء: 3 / 470.

(2) ديوان ابن الرومي: 1 / 401.

(3) ديوان ابن الرومي: 6 / 2425.

آبَائِي الرُّومُ تُوفِيلٌ وَتُوفَلَسٌ وَلَمْ يَلِدْنِي رَبْعِيٌّ وَلَا شَيْثٌ

بل أين هذا من قول أبي نواس الذي طالما رفع عقيرته ببغض العرب قائلاً: (2)

قَالُوا ذَكَرْتَ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرَكٌ قُلْ لِي: مَنْ بَنُو أَسَدٍ؟

وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَإِخْوَتُهُمْ؟ لَيْسَ الْأَعَارِبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ

ومن ثمَّ فإننا لا نتردد لحظة واحدة في تبرئة ابن جني من هذا الدنس الذي ولغ فيه كثير من ذوي الأصول الأعجمية، وفكر الرجل خير شاهد.

* ما مدى تأثيره بالثقافة اليونانية وتأثيرها عليه في مضمار النقد الأدبي؟

إذا ثبت انتساب ابن جني إلى الروم، تلك الأمة ذات الحضارة السامقة والعقلية المنظَّمة التي حملت لواء المنطق من قديم الزمن على يد فلاسفتها القدامى (سقراط وأفلاطون وأرسطو)، فالرجل تسري في عروقه تلك الدماء لا شك، ولكن هل تأثر بها أو لا؟

هنا نواجه رأيين متضادين، يحاول أولهما أن يُلغِي تأثير الدم جملةً وتفصيلاً، ويحاول الثاني أن ينتسب كل فكرة عنده إلى ذلك الدم وحده؛ وكلا طرفي قصدي الأمور دميم.

فالدكتور محمد النويهي ينفي أي تأثير للجنس أو الدم على المفكر، وإنَّما التأثير للظروف الاجتماعية والثقافية وحدها؛ قائلاً: «إنَّ العلماء لا ينكرون أنَّ لكل جنس بشري ميزات عقلية مستقلة، إنَّما الذي ينكرونه أن يقول قائل: إن سبب ذلك هو الوراثة البيولوجية، والذي يرجِّحونه هو أنَّه قد سببته عوامل البيئة التي أشرنا إليها، فهو شيء مكتسب لا شيء موروث، بحيث لو جئت بالطفل الزنجي وأحسن تربيته وتعليمه، وأحطته بالظروف الاجتماعية

(1) ديوان ابن الرومي: 1/ 401.

(2) ديوان أبي نواس؛ ص 46.

الراقية لنشأ مشابهاً لمن حوله، ولم تجد فرقاً بينه وبين غيره، اللهم إلا الفروق الشخصية التي تفصل فرداً عن فرد كائننا ما كان جنسه»⁽¹⁾.

والذي لا شك فيه أن للتثقيف والتهذيب دوراً في توجيه الأديب، ولكن الأصل الذي هو دم سار في العروق له دور كذلك، فإن الطبع يغلب التطبع، وقد رَوَوْا: أن أعرابياً ربى جرّو ذئب حتى شب، وظن أنه يكون أغنى عنه من الكلب، وأقوى على الذبّ عن الماشية، فلما قوّى وثبّ على شاة فقتلها وأكل منها، فقال الأعرابي:

وُلِدْتُ بِقَفْرَةٍ وَنَشَأْتُ عِنْدِي فَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذَيْبٌ؟

إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طِبَاعَ سُوءٍ فَلَيْسَ بِنَافِعٍ فِيهَا الْأَدِيبُ⁽²⁾

ومن قديم قال كثير عزة: ⁽³⁾

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَعْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمَهَا

فللطبع دوره الذي لا شك فيه، وإن كان التعليم خاصّة مع الإنسان يقلّص دوره إلى حدّ كبير.

وأما الرأي الآخر فهو رأي الدكتور محمد مندور؛ والذي يحاول ضمناً نسبة كل فكر عربي إلى أصل غير عربي، فعندما أراد التعليق على تفسير ابن جني قول المتنبي:

تَبْلُ خَدْيٍ كُلَّمَا ابْتَسَمْتَ مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَائِيهَا

يقول - بعد عرضه تحليلات النقاد القدامى للبيت - : «وفي البيت السابق بالذات يُحِيل إلينا أن ابن جني اليوناني الأصل، ربما يكون قد استوحاه من كلمة (هوميروس) الشهيرة في

(1) ثقافة الناقد الأدبي؛ ص 181، 182.

(2) عيون الأخبار؛ لابن قتيبة: 2 / 5 (بتصرف).

(3) ديوان كثير عزة؛ ص 148 برواية (ما ليس من سوس...)؛ وهو في عيون الأخبار: 2 / 5، لسان العرب (خيم): 2 / 1309؛ وهو برواية مختلفة يسيراً منسوب إلى الأعور الشني في الوساطة؛ ص 200، ونُسب إلى حاتم الطائي في شرح ديوان الحماسة؛ للمرزوقي؛ ص 1712 حماسية (756).

الإلياذة، عندما قال عن أندروماك: (إنّها تلقت من زوجها ولدها بابتسامة تُبَلِّلها الدموع)، هذا ممكن ولكننا لا نجزم بشيء⁽¹⁾.

وهذا إغراق في دعوى التأثير لا مسوّغ له قطعاً، فإنّ وراءه هدفاً خبيثاً قوامه تجريد العرب من الابتكار، حيث ذاعت فكره باثرة تولّى كبرها المستشرقون تهدف إلى نسبة كل علم عربي إلى أصلٍ أوروبي؛ فالمستشرق (ديلاسى أوليري) يقول عن وضع أبي الأسود الدؤلي علم النحو: «وبدأ يعمل نحو اللغة العربية ومعجمها، ويبدو أنّه في علمه هذا قد تأثر بمنطق أرسطو ولم يتأثر بالنحاة الإغريق»⁽²⁾.

بل يقول عن الفقه الإسلامي: «وفي العراق حول البصرة كانت الآثار الأولى للنظرية الفقهية التي يظهر فيها أثر القانون الروماني، والنظرات الفلسفية التي قبلها المحامون الرومان»⁽³⁾.

وإذا كانت هذه النّعة لا تُستغرب من مستشرق متعصب مغرم بازدراء العرب وتفسير القرآن الكريم تفسيراً مغرضاً، وكَلَفَ بتمجيد العناصر غير الإسلامية في تاريخ الثقافة العربية مثل الأخطل أو حُثَيْن بن إسحاق، والشّيء من معدنه لا يُستغرب، فإننا ننكر هذا كل الإنكار على الدكتور مندور؛ الذي هو في نظري بريء من هذا الهدف الخبيث، ولكنّه أراد أن يستعرض العضلات الفكرية، وأن يُدِلّ بثقافته الغربية، رغم يقيننا أن معرفة ابن جنّي باليونانية كانت محدودة، وما كانت ترقى إلى فهم الإلياذة؛ التي لم يجر لها أي ذكر في كتبه، بل نظنُّ أنّ الرجل ما سمع بها ولا بصاحبها.

* والذي يراه الباحث أنّ هناك عاملين يقربان ابن جنّي إلى الفكر اليونانيّ بعض التقريب:

(1) النقد المنهجي عند العرب؛ ص 235.

(2) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب؛ ص 219.

(3) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب؛ ص 220.

الأول: أن ابن جنّي قد اطلع على بعض الثقافات غير العربية، يمكننا استفادة ذلك مما رواه ابن ماکولا؛ قال: «حكى لي إسماعيل بن المؤمل النحويّ أنّ أبا الفتح كان يذكر أنّ أباه كان فاضلاً بالرومية»⁽¹⁾، يقول الأستاذ محمد على النجار: «وجنّي تكتب بالحروف اللاتينية مماثلة للفظ اليوناني (GENNAIUS) ومعناها: كريم، نبيل، جيد التفكير، عبقرى، مخلص.. ومن هنا يبدو صدق تفسير ابن جنّي لاسم أبيه»⁽²⁾.

ومن ثمّ فقد نستفيد أنّ ابن جنّي كان مُطلّعا على اللغة اليونانية، وقد يكون عرف ذلك من خلال أبيه الذي كان يجيدها بلا شك، حيث عاش في بلاد الروم إلى سنّ الجندية.

وفي الخصائص مواطن عدّة تدل على معرفة ثاقبة بالفارسية؛ حيث يقول في معرض الموازنة بين التقاء السواكن في العربية وغيرها: «ومن طريف حديث اجتماع السواكن شيء وإن كان في لغة العجم، فإنّ طريق الحس موضع تتلاقى عليه طباع البشر، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر؛ وذلك قولهم (آزد) للدقيق و(ماست) للبن، فيجمعون بين ثلاثة سواكن، إلا أنني لم أر ذلك إلا فيما كان ساكنه الأول ألفاً، وذلك أنّ الألف لما قاربت بضعفها وخفائها الحركة صارت (ماست) كأنّها مست»⁽³⁾.

هنا تبدو المعرفة الدقيقة والدراية العميقة باللغة الفارسية، تلك المعرفة التي أهّلتها للموازنة بين اللغتين، مع فطنته إلى وجود حسّ عالميّ وذوق عام يقف وراء استعمال اللغة، يشترك فيه البشر جميعاً.

وهذا وذاك يدلّان بما لا يدع مجالاً للشك على أنّ الرجل لم يكتف بتحصيل الثقافة العربية وحدها، بل نهل وعلّ من ينابيع ثقافات أحرّ أفاءت على فكره ظلالاً من الآثار الأجنبية.

(1) الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: 585 / 2.

(2) مقدمة الخصائص: 10 / 1.

(3) الخصائص: 91 / 1.

الثاني: من الثابت أنّ الدم اليوناني يسري في عروق ابن جنّي، والإنسان مهما ابتعد عن وطنه، ومهما اندمج في مجتمع آخر، ومهما أُشرب قلبه لغة حبّ لغة أخرى، فلن يستطيع التخلص نهائياً من العامل الوراثي الساري في عروقه، يقول الأستاذ العقاد: «وما من شك في أنّ الشاعر الذي تحدّر من أصل يوناني أيّما كان مقرّره غير الشاعر الذي تحدّر من أصل عربي أيّما كان مقرّره».⁽¹⁾

ومن ثمّ فإنّنا نقول إنّ الدم اليوناني الساري في عروق ابن جنّي قد أكسبه خصائص التفكير اليوناني، ذلك التفكير الذي يقوم على تمجيد العقل، وحرية الفكر، وتفجير طاقات الجدل والفلسفة في عقل المفكر... وقد اتضح ذلك جيّداً في فكر ابن جنّي القائم على الجدل والاحتجاج، وعلى النظرة الفلسفيّة للموضوع، فتراه يحتجّ احتجاجات عقلية محيرة للعقول، حتى تُحس أنّك أمام فيلسوف مجادل متمرّس بكل أدوات المنطق، ولذا يكثّر من استخدام طريقة: (فإن قلت قلت)، حتى يقطع الطريق أمام خصمه، ويردّ عليه كل شبهة قبل أن ينطق بها، بل ربما قبل أن تتولّد في عقله، فإن صحّ تلقيب عالم بأنّه فيلسوف اللغة؛ فإن هذا القلب أصدق ما يكون على ابن جنّي.

ومن ثمّ فإنّنا نردد قول الأستاذ أحمد أمين: «فابن الرومي وابن جنّي وأمثالهما كانوا عرب المنشأ والمربي وكانوا رُوماً بعقلهم الموروث، فجمعوا بين مزايا العقل المطبوع والعقل المصنوع، وأنتجوا منها إنتاجاً صالحاً ذا طعم خاص».⁽²⁾

وليس معنى ذلك أنّنا نفتح باب التأثير على مصراعيه - كما يريد الدكتور مندور - فإن الأثر اليوناني لم يتضح على ابن جنّي إلّا في طريقة تفكيره، وأسلوبه في الجدل، وسعيه وراء الحرية العقلية، وفتحه الباب أمام التجديد المبدع، وامتعاظه من الجمود الرديء والتوقع في سرايب الماضي.

(1) ابن الروميّ حياته من شعره؛ ص 332.

(2) ظهر الإسلام: 69 / 1.

أما فيما عدا ذلك فقد كانت ممارسته اللغوية عريضة خالصة في مادتها التي أُشرب قلبه
حُبَّها، وانصهر فيها انصهارًا كاملاً كاد يُنسيه ما عداها.

ثانياً: التبخر في علوم العربية

إذا صحَّ أنَّ النقد في أوضح صورهِ محاورَةٌ بين الناقد والنص، فلا بد أن تكون لغة الحوار مفهومة، ووسيلة الاتصال معلومة، ولولا ذلك لشاھت معالم الاتصال، وهام كل جانب في وادٍ من الضلال.

ومن ثمَّ فإنَّ امتلاك أزمّة اللغة، والاعتدار على أعنة البيان، من شأنه أن يكشف أمام الناقد كثيراً من المعاني المخبوءة في زوايا النص، الدفينة في أعماقه، ثم بعد ذلك يحاول الناقد أن يخلق مع النص في آفاق الإبداع، وأن يسبّج مع المبدع في عوالم الوحي والرمز والإشارة.

إنَّ الفهم البصير للغة هو المرحلة الأولى التي تكشف النص كشفاً كلياً ظاهراً، ثم يدلفُ الناقد من خلال ذلك الضوء الكاشف إلى دقائق الإبداع، ولولا هذا الضوء الذي منحته اللغة إياه لسار وسط ظلمات متراكمة، وكان كفيلسوف أعمى يبحث عن قطرة سوداء في حجرة مظلمة.

إنَّ الفنان الذي يُحب أن يتأمل في نقوش أبدعتها يد رسّام على جدران حجرة لا بدَّ له من الضوء الكاشف الذي يُجلى له الحقائق، ثم يبدأ المرحلة الثانية؛ مرحلة التفرس في ملامح اللوحات والتأمل في جمالياتها.

ولعلَّ الخلط بين هاتين المرحلتين هو سبب الخصومة التي دارت رحاها بين اللغويين والنحاة من جهة، والنقاد والبلاغيين من جهة أخرى... إذ وجدنا من النقاد من يحمل على اللغويين والنحاة حملة شعواء، رافعاً عقيرته باتهامات غليظة؛ كفساد الذوق، وعدم القدرة على ممارسة النقد، فقد روي عن بعضهم أنَّه قال: «رأني البُحْثريُّ ومعي دفتر شعر فقال: ما هذا؟ فقلت: شعر الشَّنْفَرَى، فقال: وإلى أين تمضي؟ فقلت: إلى أبي العباس (ثعلب) أقرؤه عليه، فقال: قد رأيتُ أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيته ناقدًا للشعر ولا مُميِّزاً

للالفاظ، ورأيته يستجيد شيئًا ويُنشده، وما هو بأفضل الشعر، فقلت له: أمّا نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى، ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه»⁽¹⁾.

فقد اتفق الرجلان على سحب بساط النقد من تحت أقدام ثعلب، نعم أنّه ربما لا يكون ناقدًا، ولكن ليس معنى ذلك أن درايته باللغة لا قيمة لها في مضمار النقد، وليست مُعِينَةً على ممارسته.

بل وجدنا من الشعراء من يرفع عقيرته في حق نحويّ يُدعى أبا جعفر فيقول: ⁽²⁾

يَا أَبَا جَعْفَرٍ تَحَكَّمْ فِي الشَّعْرِ (م) وَمَا فِيكَ آلَةُ الْحُكَّامِ

إِنَّ نَقْدَ الدِّينَارِ إِنَّا عَلَى الصَّيْرِفِ (م) صَغْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ الْكَلَامِ

قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرُقُ فِي الْأَشْعَارِ (م) بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ

فهذا خلطٌ بين المرحلتين: مرحلة الكشف اللغوي التي قد يقف عندها بعض الناس، ومرحلة التفرُّس في ملامح النص... وتلك مهمة الناقد التي لا تتم إلا بعد المرحلة الأولى، وكأنّه بناءٌ من طابقين لا يتم الثاني إلا بعد تمام الأول.

ومن ثمّ فإنّنا «لا نود أن تجرّنا النظرة التي تذهب إلى أنّ اللغويين جماعة لا يتوفرون على استبطان الشعر، واكتناه حقائقه ولمساته، وأنّ ملاحظاتهم على الشعر لا تعدو أن تكون في مسائل لغوية بحتة، ذلك أنّها - مع الاعتراف بها للنظرة النحويّة واللغويّة من دور في الصحة والخطأ - قد تجاوزت ذلك في كثير من الأحيان إلى كثير من المسائل الفنيّة والنظرات الموضوعيّة التي تتصل بالإبداع الشعريّ في المعاني والأفكار والصور والخيال والإيجاز والأطناب والذكر والحذف، وما إلى ذلك من الأمور التي تتصل بالنواحي الأدبيّة والبلاغيّة والجماليّة»⁽³⁾.

(1) دلائل الإعجاز، ص 253، المصون في الأدب؛ للعسكري، ص 4.

(2) دلائل الإعجاز، ص 254، المصون في الأدب، ص 12.

(3) القضايا الأدبية والفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة؛ ص 107، 108.

إنَّ المرفوض في عالم النقد حقًا هو قوقعة النقد داخل سراديب اللغة، أو حبسه خلف قضبان النحو مع الاكتفاء بذلك، لأنَّ النقد إنما هو تحليق مع النص في آفاق الفن الموحى واللغة الرامزة، ولكنَّ اللغة والتبحر في علومها من أعظم ما يمنح الناقد ريشًا لجناحيه اللذين يدفعانه إلى الأمام، ولولاهما لظلَّ يسبح في بحار الظلام، ثم عاد لنا من رحلته غير الموفقة صفر اليدين، لأنَّه طار بلا جناحين.

ولذا وجدنا النقاد الفاهمين يؤكِّدون حتمية هذه المرحلة الكاشفة؛ يقول ابن قتيبة: «وكل علم محتاج إلى السماع؛ وأحوجه إلى ذلك علم الدِّين ثم الشعر؛ لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة، والكلام الوحشي، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه... وأشباه ذلك لأنَّه لا يلحق بالذكاء والفطنة»⁽¹⁾، فتلك إشارة إلى «حتمية الإلمام بالمصطلح الشعري الذي نريد التعامل معه، لأنَّ الشعر ليس بناءً فنيًا فحسب حتى يمكن أن نُعوِّل فيه على ثقافة الناقد الفنية وحدها، ولكنَّه بناء فني ينحني على قيم معرفية تتصل بعلوم اللغة والأحياء والجغرافية، وغير أولئك من العلوم والفنون التي ينبغي أن يلمَّ بها الناقد إلى جوار ثقافته الفنية الأساس»⁽²⁾.

فليس عجبًا أن نؤمن بأن تضلُّع الناقد في علوم العربية من شأنه أن يمنحه شفرات النص، وأن يُعطيه مفاتيح المملكة الشعرية، فيغزو معاقلها الحصينة المليئة بألوانٍ من الغموض وطلاسم الرمز، وأن يمدَّ جناحيه بقوة دفع هائلة تمكِّنه من مواصلة التحليق في الآفاق، والغوص في الأعماق.

فإذا طبَّقنا ذلك على ابن جني وجدناه من أولئك النوادر الذين راضوا اللغة حتى أسلست لهم قيادها، فدنا قصيُّها، ودان عصيُّها، حتى أصبحت في أيديهم ليِّنَةً مطواعًا يصرفونها كيفما شاءوا، ولا غرُو فإنَّه «القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب»⁽³⁾، وإنَّه «من

(1) الشعر والشعراء: 1/ 82، 83.

(2) قضايا نقد الشعر في التراث العربي؛ د. محمد أحمد العزب: 1/ 335.

(3) يتيمة الدهر: 1/ 137.

أحذق أهل الأدب وأعملهم بالنحو والتصريف»⁽¹⁾.. إلى غير ذلك من العبارات التي لم تُكَلَّ جزافاً، وإنَّما تعبيراً عن قدرة باهرة شهد له بها المتقدمون والمتأخرون.

هذه القدرة وذلك التمكن قد أعطياه قدرة عجيبة على فتح ممالك النصوص، والسباحة في تيارها مهما علا الموج، والتحليق في أجوائها مهما سما خيال الشاعر، حتى قال الباخرزي: «ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المفصلات وشرح المشكلات ما له، فقد وقع عليها من ثمرات الأعراب»⁽²⁾ ولا سيَّما في علم الإعراب، ومن تأمل مصنفاته، وقع على بعض صفاته، فوربِّي أنَّه كشف الغطاء عن شعر المتنبي»⁽³⁾.

وليس هذا مجرد ثناء نظري، وإنَّما هي الحقيقة التي يشهد بها المطالع لفكر الرجل، حيث يلمس أن اللغة لم تكن في يده أحجاراً جامدة، بل وصل من خلالها إلى دقائق فنيَّة، وإلى لمحات بلاغية تدل على حسٍّ مرهف وذوق فنان - نأخذ على ذلك بعض الأمثلة:

(1) عندما أراد توجيه قراءة الحسن في سورة الفاتحة: «اهدنا صراطاً مستقيماً»⁽⁴⁾، قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون أراد - والله أعلم - التذلل لله سبحانه، وإظهار الطاعة له، أي قد رضينا منك يا ربنا بما يقال له: صراط مستقيم، ولسنا نريد المبالغة في قول من قرأ الصراط المستقيم، أي: الصراط الذي قد شاعت استقامته، وتُعولت في ذلك حاله وطريقته، فإنَّ قليل هذا منك لنا زائلاً عندنا، وكثير من نعمتك علينا، ونحن له مطيعون، وإلى ما تأمر به وتنهى فيه صائرون، وزاد في حُسن التنكير هنا ما دخله من المعنى، وذلك أنَّ تقديره: أدِّمْ هدايتك لنا، فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد هديتنا إلى صراطٍ مستقيم، فجرى حينئذٍ مجرى قولك: (لئن

(1) معجم الأدباء: 3/ 461.

(2) كذا وردت في الدمية وفي معجم الأدباء، وأظنُّ أنَّ بها تحريفاً صوبه القفطي الذي رواها: «فقد وقع منها على ثمرة الغراب»، وهو مثلٌ يُضرب إذا أصاب الرجل أفضل ما يريد؛ يقال: وجد ثمرة الغراب، لأنَّ الغراب إنَّما يبتغي من الثمر أجوده وأنضجه. (إنباه الرواة: 2/ 338).

(3) دمية القصر: 3/ 1481، ومعجم الأدباء: 3/ 463.

(4) الآية [6] من سورة الفاتحة؛ وقراءة حفص: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

لقيت رسول الله ﷺ لتلقين منه رجلاً متناهيًا في الخير، ورسولاً جامعاً لسبل الفضل)، فقد آلت به الحال إلى معنى التجريد؛ كقول الأخطل:

بِزُرَّةٍ لِّصٍّ بَعْدَ مَا مَرَّ مُصْعَبٌ بِأَشْعَثَ لَا يُفْلَى وَلَا هُوَ يَقْمَلُ⁽¹⁾

ومصعب نفسه هو الأشعث، وعليه قول طرفة:

جَازَتِ الْقَوْمَ إِلَى أَرْحُلِنَا آخِرَ اللَّيْلِ يَبْعُثُورِ خَدِرٍ⁽²⁾

وهي نفسها عنده اليعفور، أنشدنا أبو علي:

أَفَاءَتْ بَنُو مَرْوَانَ أَمْسٍ دِمَاءَنَا وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ يَحْكُمُوا حَكْمٌ عَدْلُ⁽³⁾

وهو سبحانه أعرف المعارف، وقد سماه الشاعر حكماً عدلاً، فأخرج اللفظ مخرج التنكير، فقد ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف.

وفيه مع ذلك لفظ الرضا باليسير، فإذا جاز أن يرضى الإنسان من مخلوق مثله بما رضى به الشاعر من محبوه، بما دل عليه قوله أنشده ابن الأعرابي:⁽⁴⁾

وَإِنِّي لَأَرْضَى مِنْكَ يَا لَيْلُ بِالَّذِي لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِلَابِلُهُ
بِلا، وَبِأَنَّ لَا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمُمَى وَبِالْوَعْدِ حَتَّى يَسَامَ الْوَعْدَ آمِلُهُ
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى، وَبِالْحَوْلِ تَنْقُضِي وَأَوَّخِرُهُ لَا تَلْتَقِي وَأَوَّائِلُهُ

وأنشدني بعض أصحابنا لبعض المولدين:

عَدِينًا وَكَذِبِيًّا وَأَمْطِلِيًّا فَقَدْ أَوْمِتَ مِنْ سُوءِ الْعِقَابِ

(1) شرح ديوان الأخطل التغلبي؛ ص 271.

(2) ديوان طرفة؛ ص 50 برواية (جازت البيد...).

(3) لأبي الخطار الكلبي في حماسة ابن الشجري؛ ص 4 برواية:

أَفَادَتْ بَنُو مَرْوَانَ قَيْسًا دِمَاءَنَا وَفِي اللَّهِ إِنْ يُنْصَفُوا حَكْمٌ عَدْلُ

وانظر: الخصائص: 2/ 477، معاهد التنصيص: 3/ 16.

(4) لجميل بثينة؛ وهي في ديوانه، ص 115، وفي الأغاني: 8/ 105 برواية (من بثينة...).

فَلَسْنَا مِنْ وَعِيدِكَ فِي ارْتِيَابٍ وَلَا مِنْ صِدْقِ وَعْدِكَ فِي اقْتِرَابٍ
وَلَكِنَّا بِشَوْمِ الْجَدِّ مِمَّا نَفِرُ مِنَ الْعَذَابِ إِلَى الْعَذَابِ

وعليه قوله الآخر:

عَلَّيْنِي بِمَوْعِدٍ وَأَمْطِلِي مَا حَيَّيْتُ بِهِ
وَدَعِينِي أَعِيشُ مِنْكَ (م) بِجَوَى تَطْلُبُهُ
فَعَسَى يَعْثُرُ الزَّمَانُ (م) بِقَلْبِي فَيَنْتَبِهَ

ونظائره كثيرة قديمة ومولدة - كان العبد البر والزاهد المجتهد أحرى أن يسأل خالقه جلَّ وعزَّ مقتصدًا في سؤاله، وضامًا من نفسه السمع والطاعة على ذلك ممن يأمره.

ويؤكد عندك مذهب ما أنشدته آنفًا ما حدثنا به أبو علي قال: لما قال كثير:

وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ خَلِيلِي بِنَائِلٍ قَلِيلٍ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ⁽¹⁾

قال له ابن أبي عتيق: هذا كلام مكافئ، هلاً قلت كما قال ابن الرُّقِيَّات:

رُقِيٌّ بِعَمْرِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَيِّئًا الْمُنَى ثُمَّ امْطِلِينَا⁽²⁾»⁽³⁾

فانظر إلى ابن جني وهو يفجّر المعاني تفجيرًا، وهو يحمل القراءات الشاذة على معنى غاية في اللطف، وكيف يستنبط منها معنى التجريد؟ وكيف يفيض نهره العذب بسيل من الأبيات الرقيقة؟ فلا تدري أنت أُمَامَ لغويٍّ حاذقٍ أم أُمَامَ بلاغيٍّ ناقدٍ، أم أُمَامَ أديبٍ حافظٍ تتفجّر أنهار المعارف من ذاكرته؟

(2) عندما تعرض لشرح بيت ذي الرُّمّة:

- (1) ديوان كثير عزة؛ ص 112 برواية (... ولا راضٍ له بقليل).
(2) ديوان عبيد الله بن قيس الرُّقِيَّات؛ ص 137، والقصة مطوّلة في الأغاني: 5/ 85، 86، وفي الموشح؛ ص 201، وفي شرح المرزوقي للحماسة؛ ص 1324.
(3) المحتسب: 1/ 41-43.

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْتِقِ الصُّحَى وَصُورُثُهَا أَوْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ⁽¹⁾

ذكر مذهب الفراء الذي رأى أن (أو) بمعنى بل⁽²⁾، ورغم صحة ما ذهب إليه الفراء فإن ابن جني يرى أن بقاء (أو) على معناها الأصلي من الشك أولى، لما ينطوي عليه المعنى مع الشك من بلاغة رائعة ومراوغة مثيرة في أداء المعنى؛ إذ يقول: «... بل إذا كانت هنا على بابها كانت أحسن معنى وأعلى مذهباً... وذلك أنها على بابها من الشك، ألا ترى أنه لو أراد بها معنى بل، فقال بل أنت في العين أملح؛ لم يف بمعنى (أو) في الشك، لأنه إذا قطع يقيّن أنها في العين أملح كان في ذلك سرف منه ودعاء إلى تهمة في الإفراط له، وإذا أخرج الكلام مخرج الشك كان في صورة المقتصد غير المتحامل ولا المتعجرف، فكان أعذب للفظه وأقرب إلى تقبل قوله، ألا تراه نفسه أيضاً قال:

أَيَا ظَبِيَّةَ الْوَعَسَاءِ بَيْنَ جَلَا جِلٍّ وَبَيْنَ النَّقَا آتَتْ أُمُّ أُمِّ سَالِمٍ؟⁽³⁾

وبعد؛ فهذا مذهب الشعراء أن يُظهروا في هذا ونحوه شكًا وتخالجًا، ليرواقوة الشبه واستحكام الشبهة، ولا يقطعوا قطع اليقين البتة، فينسبوا بذلك إلى الإفراط وغلو الاشتطاط، وإن كانوا هم ومن يقرأ بعد أشعارهم يعلمون أن لا حيرة هناك ولا شبهة، ولكن كذا خرج الكلام على الإحاطة بمحصول الحال⁽⁴⁾.

فَفَهَّمُ ابن جني مذاهب الشعراء - أي أساليبهم في إيراد الكلام - هو الذي جعله يرفض رأى الفراء - رغم صحته - وهذا يدل على أن ذوق الرجل ليس لغويًا صرفًا كما أذاع خصومه، وإنما هو ذوق الفاهم لروعة الأسلوب، وما ينطوي عليه مع الشك من بلاغة سمّاها ابن جني نفى الغلو ودعوى الإفراط. وهي في تقديري مراوغة فنية من الشاعر ليثير المتلقي،

(1) لم أجده في ديوانه.

(2) معاني القرآن؛ للفراء: 1/ 72؛ ولم ينسبه وإنما قال: وأنشدني بعض العرب.

(3) ديوان ذي الرمة: 2/ 767.

(4) الخصائص: 2/ 460، 461.

ويحرك ذهنه في الترجيح بين الأمرين، وتخيّر أحد الشئيين، فتذهب نفس المتلقّي في التفسير والترجيح كل مذهب، وهناك يكون الشاعر قد نجح في إثارة السامع وجذب انتباهه.

هذان مثالان من طريقة ابن جني في فهم معاني الشعر ونقده، وهما غيُص من فيض في فكره الذي يمتلئ بمثل هذا التحليل الرائع، وكأنّه يرد عملياً وبقوة على أولئك الأدعياء الذين اتهموه بفساد الذوق؛ لأنّ اهتماماته اللغوية لا تؤهله لفهم مثل هذه المعاني الرائعة!!

إنّ هذه التحليلات تدلنا بقوة على أنّ «الضلاعة في التفسير اللغوي وبخاصة في الشعر يُعطى المعنى سيولة عجيبة تلامس الذوق وتصافح الوجدان، وسر جمال الشعر وروعه أنّه كما يُقال جمال أوجه تختلف الرؤى فيه وتتعدد الانطباعات عنه، ويظل مع هذا الاختلاف ذا حرارة ونبض يأخذ على المرء عقله ويستحوذ منه على إحساسه، ويسرى بمضائه إلى حيث مسارب النفس وبؤر الشعور».⁽¹⁾

ذلك أن التبخر في نظر ابن جني ليس حفظاً تسجيلياً شأن زوامل الأشعار، ولا هو جمع متراكم كما يجمع حاطب الليل، وإنّما هو فهمٌ بصير وذوقٌ رفيع يحوّل اللغة إلى عجينة مطوّع، ويسهّل وعورة النص عند الانتقاد، فإذا جلاّ ميد التراكيب كأنّها الماء سلاسة والنسيم رقة، ولا غرو فهو القائل: «فالتأني والتلطّف في جمع هذه الأشياء وضمّها وملائمة ذات بينها، هو خاص اللغة وسرّها، وطلاوتها الرائقة وجوهرها، فأما حفظها ساذجة، وقمشها محطوبة هرّجة فنعوذ بالله منه، ونرغب بما آتانا سبحانه عنه».⁽²⁾

ويقول في موطن آخر مؤكداً أهمية الذوق مع الإحاطة باللغة: «ومن لم يخلد مع ثقته إلى نظر يعصم به ويتساند إليه بأمانته، أُتي من قبل نفسه من حيث يظن أنّه ينظر لها، وكان ما دهاه في ذلك من أجلّ فقاھته لا أمانته».⁽³⁾

فليت شعري هل حال التبخر في اللغة بين ابن جني وبين تذوق المعاني كما زعم الأدعياء؟

(1) القضايا الأدبية والفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة؛ ص 121.

(2) الخصائص: 2 / 127.

(3) المحتسب: 1 / 40.

الحقُّ أنَّ هذا التضلُّع في اللغة هو الذي فتح أمامه كل باب، وهتك عن المعاني كل حجاب، وأخذ بيده نحو فضاءات رحبة وأعماق دفيئة من المعاني المستورة كما أخذ النحو بيد شيخ البلاغيين عبد القاهر، ليقيم على أساس المعاني النحوية نظريته الرائعة في النظم.

ثالثاً: الفكر الاعتزاليّ

ما كادت فرقة المعتزلة تقف على قدمٍ وساق حتى وجدت نفسها وسط بحر عميق تتقاذف التيارات أمواجه يمنة ويسرة، إذ كان كل زعيم فرقة يحاول الظهور ويعمل جاهداً على أن يكون فارس الميدان، فيحرز قصب الرهان، ناهيك عن أعداء الإسلام الذين ما فتئوا يطعنون الفكر الإسلاميّ طعنات مُصمّية، لولا الوقفة الشجاعة التي وقفها علماء الإسلام في وجه هؤلاء العلوج الأعتماد.

وقد كان لفرقة المعتزلة النصيب الأوفى في هذا المضمار، إذ وقف رجالها وقفة صامدة شماء أمام عواقي التيارات، مسجلين أروع المثل في إفحام الخصوم وكبت أعداء الدين، ومن البدهي أن يتسلح هؤلاء المجادلون بكلّ عُدَد الصمود والدفاع الدينيّة واللغويّة والمعرفيّة والخطابيّة حتى ينهضوا بهذا العبء الثقيل.

وقد كان للنقد الأدبيّ الحظ الأوفى من اهتمامات هؤلاء المعتزلة لعاملين كبيرين:

«أولهما: أنّ البلاغة عنصر هام في الإقناع، والإقناع غاية الجدل الكلامي، ولهذا كان بعض علماء المعتزلة معلّمي بلاغة كما كان سفسطائيو اليونان.

ثانيهما: إيمان المعتزلة - رغم دراستهم للثقافات الأجنبية وتأثرهم بها - أنّ الشعر العربيّ مصدر من مصادر المعرفة الكبرى ووعاء لها.. وإلى جانب هذه الميزة الثقافية يضطلع الشعر بميزات تتصل بحاجات النفس الإنسانيّة، ولهذا الشرف في منزلته فإنّه حقيقٌ بالتمحيص والدرس»⁽¹⁾.

ومن ثمّ وجدنا الرواد الأوائل الذين أسسوا علم البلاغة والنقد الأدبيّ من المعتزلة من أمثال: إبراهيم بن سيّار النظام (ت 220 هـ تقريباً)، والجاحظ (ت 225 هـ)، وأبي العباس الناشئ (ت 293 هـ) ... وهي الطبقة التي وصفها بشر بن المُعتمر بقوله: ولأنّ

(1) تاريخ النقد الأدبيّ عند العرب؛ د. إحسان عباس، ص 66 وما بعدها.

كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء⁽¹⁾.

وفي هذا الخبر الذي يرويه الشريف المرتضى خير دليل على امتلاك رجال هذه الطائفة لأزمة البيان منذ نعومة أظافرهم؛ حيث يروى: «دخل النظام على الخليل بن أحمد وهو حدث ليعلمه، فقال له الخليل يوماً يمتحنه وفي يده قذح زجاج: يا بُنيّ؛ صف لي هذه الزجاجية، فقال: أمدح أم بدم؟ قال: بمدح، قال: نعم، تريك القذى، لا تقبل الأذى، ولا تستر ما وري. قال: فذمّها، قال: سريع كسرّها، بطيء جبرها. قال: فصّف هذه النخلة، وأوماً إلى نخلة في داره فقال: أمدح أم بدم؟ قال: بمدح، قال: حلّو مُجْتَنَاهَا، باسق منتهاها، ناضر أعلاها، قال: فذمّها، قال: هي صعبة المرتقى، بعيدة المُجْتَنَى، مخوفة الأذى، فقال الخليل: يا بُنيّ؛ نحن إلى التعلّم منك أحوج»⁽²⁾.

لهذه القدرة الرائعة لدى أئمة المعتزلة راقّت هذه المدرسة لجلّ أرباب الفكر، وولّى الشعراء وجههم شطرها يستلهمون منها المعرفة، ويستلمون الفكر من أفواه أقطابها «بل قلّما نجد شاعراً ناهياً في هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وأبان اللاهتي والعتّابي ومنصور النمرّي وأبي تمام»⁽³⁾.

كما أن علماء العربية وجدوا في هذه المدرسة روح الحرية الفكرية التي لا تحجر على العقل ولا تكبل الفكر، بل تمنحه القدرة على الخلق والإبداع، وتمدّه بجناحين يخلق بهما في آفاق الفن وأجواء البيان، لهذا اعتنقه ناقدنا ابن جني، وهو الذي يسبح بحمد الحرية آناء الليل وأطراف النهار، ولم يكن ابن جني وحيداً في هذا الاتجاه بل كانت تلك شئنة علماء العربية ونقادها في تلك الحقبة من تاريخ الفكر العربيّ من أمثال: الرماني (ت 384هـ)، والمرزباني (ت 384هـ)،

(1) البيان والتبيين: 1/ 139.

(2) أمالي المرتضى: 1/ 189.

(3) تاريخ الأدب العربيّ العصر العباسي الأول؛ د. شوقي ضيف، ص 133.

والصاحب بن عبّاد (ت 385هـ)، والقاضي عبد الجبار (ت 415هـ)، والشريف المرتضى (ت 436هـ) وغيرهم.

وقد كان لاعتناق ابن جنّي هذا المذهب أثره الواضح في تلوين وتكوين فكره النقدي، فقد رفع راية غلبة الحقيقة على المجاز، حتى اشتط في هذا الموضوع أبلغ الشطط، فزعم أن كل فعل مجاز لا حقيقة حيث يقول: «اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة، وذلك عامة الأفعال؛ نحو: قام زيد، وقعد عمرو، وانطلق بشر، وجاء الصيف، وانهزم الشتاء. ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية، فقولك: قام زيد؛ معناه كان منه القيام، أي هذا الجنس من الفعل، ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام، وكيف يكون ذلك وهو جنس، والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتي الكائنات من كل مَنْ وجد منه القيام، ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد في وقتٍ واحد ولا في مائة ألف سنة مضاعفة القيام كله، الداخِل تحت الوهم»⁽¹⁾.

ولذلك وجدناه يحتفل كل الاحتفال بالمعاني المجازية في الشعر، ويلوذ بها في مقام الدفاع عن مسألة التوحيد في نظر المعتزلة، وهو أصل من أصول مذهبهم، ومن مقتضياته نفى كل دواعي التشبيه عن الله سبحانه وتعالى؛ يقول الشهرستاني: «واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، ونفى التشبيه عنه من كل وجه؛ جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً»⁽²⁾.

ومن ثمّ وجدنا ابن جنّي يؤوّل القرآن على مقتضى مذهب المعتزلة لائذاً باللغة المجازية في الشعر التي تفي له بهذا الغرض أيّما وفاء.

ففي قوله تعالى: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَوَجَّهَ اللَّهُ﴾ [البقرة: 115] ينفي المعتزلة عن الله الوجه لما يقتضيه من التمثيل، فيفسر ابن جنّي الوجه بالاتجاه إلى الله مستشهداً ببيت الكتاب:

(1) الخصائص: 2/ 449، 450 وانظر: الفتح الوهبي، ص 27 حيث تكرّرت الفكرة.

(2) الملل والنحل (بهاشم الفصل): 1/ 55.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ⁽¹⁾

وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67] ينفي المعتزلة عن الله اليمين بمعنى الجارحة، ولذا يفسرها ابن جني بالقوة، لائذاً بقول الشماخ:

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ⁽²⁾

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42] يُنكر المعتزلة أن يكون لله ساق، فيفسرها ابن جني: بأنها كناية عن شدة الأمر؛ لائذاً بقول الشاعر:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ⁽³⁾

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28] يُنكر المعتزلة خلق أفعال العباد لما يوحى به لك من جبر يتنافى مع الثواب والعقاب، فيفسرها ابن جني (أغفلنا) بأن معناها: صادفناه غافلاً، أو وجدناه غافلاً، مستشهداً بقول الأعشى:

(أَنْوَى وَقَصَرَ لَيْلَةً لِيُزَوِّدَا) فَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدًا

أي صادفه مُخْلَفًا.⁽⁴⁾

وهكذا يستعصم ابن جني بالشعر حتى يفسر القرآن تفسيراً يوافق مذهبه العقدي، جاعلاً من اللغة الشعرية المجازية ملاذه الذي يلجأ إليه عند الاحتجاج، وكأن الفكر الاعتزالي كان يتحكم كل التحكم في تفسيره للشعر ونقده.

وفي مجال تفسير الشعر وجدنا ابن جني يرجح وجهاً على آخر؛ لأن المرجوح يخالف آراء المعتزلة ويصادم مبادئهم.

(1) انظر: الخصائص: 3 / 250، والبيت غير منسوب في الكتاب: 1 / 37.

(2) انظر: الخصائص: 3 / 252، والبيت في ديوان الشماخ، ص 336.

(3) انظر: الخصائص: 2 / 254، 255، والبيت لسعد بن مالك؛ جد طرفة بن العبد، وهو من أبيات الحماسة [شرح المرزوقي: 1 / 504، 505].

(4) انظر: الخصائص: 3 / 256، 257، والبيت للأعشى في ديوانه، ص 227.

فقد ذكر في «الخصائص» عن الزيايدي عن الأصمعي قال: حضر الفرزدق مجلس ابن إسحاق فقال له: كيف تنشّد هذا البيت:

وَعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كُونَا فَكَأَنَّتَا فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفَعَّلُ الْخَمْرُ؟

فقال الفرزدق: كذا أنشد، فقال ابن إسحاق: ما كان عليك لو قلت فعولين؟ فقال الفرزدق: لو شئت أن تسبّح لسبّحت... ونهض فلم يعرف أحد في المجلس ما أراد بقوله له: لو شئت أن تسبّح لسبّحت، أي لو نصب لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما أن تفعلّا ذلك، وإنّما أراد أنهما تفعلان بالألّباب ما تفعل الخمر. قال أبو الفتح: (كان) هنا تامة غير محتاجة إلى الخبر فكأنه قال: وعينان، قال الله: احداثا فحدثتا، أو اخرجنا إلى الوجود فخرجتا⁽¹⁾.

وتفسير هذا الخبر أن (كان) إمّا أن تعتبر تامة وهي المكتفية بالفاعل فلا تحتاج إلى خبر منصوب، وهي بمعنى وُجد كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، ومعنى البيت قال الله لهما: كونا؛ أي احداثا فحدثتا، ثم استأنف كلاماً جديداً فقال: فعولان بالألّباب، فتكون (فعولان) خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي هما فعولان، وهذا ما أراد الفرزدق وأيده ابن جنّي.

وإمّا أن تعتبر ناقصة فتكون (فعولين) خبرها، وهذا وإن جاز نحويّاً إلا أنّه يتعارض مع أصل (العدل) عند المعتزلة، إذا يلزم منه أن الله أمرهما بذلك، بل أجبرهما على هذا الفعل وسخرهما لتنفيذه، وقد اتفق المعتزلة على أن العبد خالق لأفعاله خيراً وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، والرّب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية؛ لأنّه لو خلق الظلم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً⁽²⁾.

وهكذا فرض الاعتزال على ابن جنّي رؤية معينة في نقده للشعر، فهو لا يرى الشعر إلا بمرآة المعتزلة، إمّا ليتخذ منه الدليل في تفسيره لآي القرآن، وإمّا ليرجّح وجهاً على

(1) الخصائص: 3/ 305، والخبر في مجالس العلماء؛ للزّجاجي، ص 66، وأمالى المرتضى: 20/ 1، والبيت لذى الرّمة في ديوانه: 1/ 578.

(2) الملل والنحل: 1/ 55، 56.

وجه شريطة ألا يخرج عن أصول مذهبه، وهي لا شك رؤى تحرّريّة، دائمة التمرّد على القيود السلفيّة التي تحبس النص في أقفاصٍ من حديد، فاعتماد ابن جنّي مذهب المعتزلة إنّما هو حمل لمشاعل الحرّيّة أمام النصوص، وفهم محلّق دون قيود، وتلك بداية كلّ تجديد.

رابعاً: مجلس سيف الدولة الحمداني

ابتنى سيف الدولة على بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان التغلبي لنفسه قصرًا من الأعمار؛ حيث كان مفزع الخليفة في بغداد عند الشدة، يعهد إليه بتأديب المارقين وتخضيد شوكة الثائرين، ومتى آوى إليه فقد آوى إلى ركنٍ شديد، له جذور راسخة في الفتوة، وفروع باسقة في القوة، لكن ذلك الشاب الطموح المقدم كان يفعل ذلك تحت إمرة أخيه ناصر الدولة أمير الموصل، حتى جاء عام 333 هـ فانقضَّ سيف الدولة على حلب التي كانت تحت إمرة الإخشيد، فارتعدت فرائصه، وولى يَحْتَتُّ أنجي مطاياه من الهرب، ليؤسس سيف الدولة نواة مُلك سوف يُناطح الجوزاء عزًّا، وسوف يكتب اسم صاحبه بحروفٍ من نور في سجل الخالدين.⁽¹⁾

فلما أسس سيف الدولة مُلكه، أصبحت حلب كعبة للعلماء، ومثابة للأدباء، يخفون إليها زُرَّافات ووُحْدانا، ويأتونها رجالا وعلى كل ضامرٍ من كل فجٍّ عميق، ولعلَّ ذلك راجع إلى عدة أسباب:

(1) أنَّ سيف الدولة عربيّ المحتد، إذ ينتمى إلى قبيلة تغلب، ذلك الاسم الذي يملأ القلوب رعباً؛ فقد وُصِفَ بنو تغلب بأنَّهم (كانوا أسوداً تُرهب، وسِهَامًا لا تُقرب، وأبطالاً لا تُكذب)⁽²⁾، ولذا يقول فيه المتنبي:

مِنْ تَغْلِبَ الْعَالِيَيْنَ النَّاسَ مَنْصِبُهُ وَمِنْ عَدِيٍّ أَعَادَى الْجُبْنَ وَالْبَخْلَ⁽³⁾

رأى العلماء هذا المحتد الأصيل وسط المحيط الإسلامي الذي كادت هويته تُمحيى بعدما سيطر الترك ثم البويهيون على مقاليد الأمور في بغداد، تلك السيطرة التي كانت تُورق محبي

(1) انظر في كيفية وصوله إلى الإمارة: سير أعلام النبلاء: 16/188، دول الإسلام: 1/205، البداية والنهاية: 11/223، 224.

(2) ذيل الأمالي والنوادر: 3/30.

(3) ديوان المتنبي، ص 330.

العروبة، فتحن نفوسهم شوقاً إلى ذلك اليوم الذي يتخلص فيه العالم العربي من سيطرة العجم، حتى قال المتنبي الذي يمتلئ امتعاضاً وبُغضاً للأعاجم:

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مَنِيَّ مِثْلَ مَضْرِبِهِ وَيَنْجَلِي خَبْرِي عَنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ
بِكُلِّ مُصْلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظَرِي حَتَّى أَدْلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخَدَمِ⁽¹⁾

(2) وجد العلماء والأدباء الدولة العباسية تُنتقص من أطرافها، والخليفة في بحرٍ من العجز والهوان، يقطع منه كل متغلب طرفاً من المملكة مقابل الخراج والدعاء، بينما الدولة البيزنطية ذات الأحقاد الصليبية الناعرة في العظام حتى النخاع تهاجم المسلمين، ورأوا أنَّ سيف الدولة الحمداني يمثل جبهة الصمود والتحدي لهذه القوة الكاسحة؛ إذ خاض أعتى الحروب ضد إحدى القوى العظمى في العالم، فردَّهم على أعقابهم خاسرين، وأعادهم صُفر الوجوه من الخزي والعار، بعدما جاءوا بجيوشٍ جرارة لا قِبَلَ لأحدٍ بها ولا طاقة لهم لتلك الجيوش؛ التي قال المتنبي عن مَنْ فيها من أشتات مجتمعات:

خَمِيسُ بَشْرِقِ الْأَرْضِ وَالْعَرَبُ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجَوَزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسَنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا تُفْهِمُ الْحُدَاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ⁽²⁾

فردَّ سيف الدين الدولة هذه الجموع بعدما خاض حروباً ومعارك ضارية، حتى قال الرواة: «إنَّه جمع الغبار الذي يقع عليه في تلك المعارك، وصنع منه كِبَنَةً، وأوصى أن تُوضع تحت خدَّه في القبر».⁽³⁾

(3) كان سيف الدولة كثير الإغداق على العلماء والشعراء لا يقبض يده عن قريبٍ أو بعيد، فخفف العلماء إليه في حلب حتى يجوزوا هذا النصب العظيم فيعودون إلى ديارهم بُجَرٍ

(1) ديوان المتنبي، ص 32، 33.

(2) ديوان المتنبي، ص 376.

(3) سير أعلام النبلاء: 16 / 189.

الحقائب، «فقد أمر الرجل بضرب دنانير للصلاة، عليها اسمه وصورته، وزن الدينار منها عشرة مثاقيل»⁽¹⁾.

وقد ذكرتُ مثلاً من قبل على إجابته كل طلب للمتنبّي في بيته المليء بالمطالب⁽²⁾، بل إنَّ عطاياه قد تعدّت سكان حلب، فقد حكى الصايي: طلب مني رسول سيف الدولة شيئاً من شعري فدافعته أياًماً، ثم ألحَّ عليّ وقت الخروج فأعطيته هذه الثلاثة الأبيات؛ وهي:

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِي الْأَمَانَةِ سَاعَةً فَذَمَّمْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودَا
وَزَعَمْتُ أَنْ لَهُ شَرِيكاً فِي الْعُلَا وَجَحَدْتُهُ فِي فَضْلِهِ التَّوْحِيدَا
فَسَمَّا لَوْ أَنِّي حَالِفٌ بِعُمُوسِهَا لِعَرِيمٍ دَيْنٍ مَا أَرَادَ مَزِيدَا

قال: فلما عاد الرسول إلى الحضرة، ودخلت عليه مسلماً، أخرج لي كيساً بختم سيف الدولة مكتوباً عليه اسمي وفيه ثلاثمائة دينار.⁽³⁾

لهذا كله جمعت حلب ثلّة من خير شعراء العربية الفحول، وكتّابها المجيدين، وعلمائها الحذاق، من أمثال: المتنبّي (ت354هـ)، وأبي فراس الحمداني (ت357هـ)، وأبي الفتح كشاجم (ت360هـ)، والسريّ الرّفاء (ت362هـ)، وابن خالويه (ت370هـ)، والوأواء الدمشقي (ت390هـ)، وأبي العباس النامي (ت399هـ)، وابن نباتة السعدي (ت405هـ)، وغيرهم كثير.

وصدق الثعالبي وهو يقول واصفاً حضرة سيف الدولة: «مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرّحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال: إنّه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، وإنّا السلطان

(1) يتيمة الدهر: 42 / 1.

(2) انظر هذا البحث: ص 23، 24.

(3) يتيمة الدهر: 45 / 1.

سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديبًا شاعرًا محبًا لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به⁽¹⁾.

وقد تبين لنا من خلال حياة ابن جني أنه وصل إلى حلب مع شيخه أبي عليّ الفارسي في عام 341 هـ ومكث فيها خمس سنوات، إذ فارقها عام 346 هـ، وهي مدة كافية لأن ينهل ابن جني ويعمل من نهر العطاء العلمي المتدفق على أرض حلب.

لقد أحبّ ابن جنيّ المقام في حلب حبًّا جمًّا رغم ما كان يعكر صفو الجو من مشاحنات بين الأدباء والنحاة، فتمّ صراعات بين أبي عليّ الفارسي وابن خالويه وبينهما معًا وبين المتنبي وأبي فراس، هذه الصراعات وإن أفسدت العلائق الاجتماعية فإنّها أعظم ما يُصلح به أمر العلم والشعر، لأنّها تحرّك المياه الآسنة وتذكى نار البحث والاطّلاع في نفس كلّ رجل منهم؛ حيث يطمع في إحراز قصب السبق، وتحقيق الفلج على خصمه الألد.

ومما زاد من حدّة الصراع أنّ سيف الدولة كان شاعرًا ناقدًا لغويًا، يتمتع بذوق مُرَهَف في هذه المجالات جميعًا، فأفاد ابن جنيّ من هذه الصراعات جميعًا كلّ الإفادة.

ففي مجال اللغة: «يتدخل المتنبي في حلبة صراع لغويّ بين ابن خالويه وأبي الطيّب اللغوي، فينصر الأخير فيغتاظ ابن خالويه ويُخرج مفتاحًا ليلكم به المتنبي، فيقول له: اسكت؛ ويحك فإنّك أعجمي وأصلك خوزي، فما لك وللعربية؟ فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بذلك المفتاح، فأسال دمه على وجهه وثيابه»⁽²⁾.

وسيف الدولة يطلب من ابن خالويه اسمًا ممدودًا جمعه مقصور، فيقول: أنا أعرف أسماء ممدودة تُجمع بالقصر، قال: ما هي؟ قال: لا أقول إلا بألف دينار.⁽³⁾

(1) يتيمة الدهر: 37 / 1.

(2) الصبح المنبي، ص 87.

(3) المزهر في علوم اللغة؛ للسيوطي: 2 / 226، 227.

بل «يسأل سيف الدولة ابن خالويه عن دمشق؛ هل يُقال فيها دمشق؟ فأجابه: دمشق اسم هذه المدينة، ليست عربية إنما هي معربة ولا يقال بغيرها... فأعاد سيف الدولة الرقعة وقد وقع فيها: مَرَّبْنَا فِي كِتَابٍ، قال عبد الرحمن بن حلّ الجمحي وهو بعسكر يزيد بن أبي سفيان عند حصارهم دمشق:

أَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنَّا بِأَنَّا عَلَى خَيْرِ حَالٍ كَانَ جَيْشٌ يَكُونُهَا
وَأَنَا عَلَى بَابِي دِمَشْقَةَ نَرْتَمِي وَقَدْ حَانَ مِنْ بَابِي دِمَشْقَةَ حَيْثُهَا

فكتب إليه ابن خالويه: هذا جائز للشاعر ولا سيما إذا كان يقصد بدمشق إلى مدينة، فزادها هاءً لتأكيد التأنيث، فبعث إليه سيف الدولة يستحضره، فلما مثل بين يديه، قال: أيها الأمير؛ رَبِّ علم كنت سببه، وقد استغدت دمشق، إلا أَنَّهُ في النحو كما ذكرت، والعرب تزيد المذكر بياناً كما قال النبي ﷺ ابن لبون ذكر، وتزيد المؤنث توكيداً مثل: نعمة أنشئ... وذكر كلاماً غيره⁽¹⁾.

وفي مجال الشعر: كان سيف الدولة شاعراً مُفْلِقاً وهو القائل في جارية له كان يحبها جداً فأزعم سائر حظاياه على التخلص منها فنقلها إلى حصن آخر وقال:⁽²⁾

رَأَيْتُنِي الْعَيْنُ فِيكَ فَاشْفَقْتُ (م) وَلَمْ أَخْلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ
وَرَأَيْتُ الْعَذُولَ يَحْسُدُنِي فِيكَ (م) مُجِدًّا بِأَنْفَسِ الْأَعْلَاقِ
فَتَمَيَّيْتُ أَنْ تَكُونِي بَعِيدًا وَالَّذِي يَبِينَا مِنَ الْوُدِّ بَاقِ
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفٍ هَجْرٍ وَفِرَاقٍ يَكُونُ خَوْفَ فِرَاقِ

وهو شعر رقيق يدل على ما يتمتع به الأمير من موهبة متوقدة وحسّ مرهف، ومن ثمَّ كان

(1) انظر: الشعر في رحاب سيف الدولة؛ ص 55، 56 (باختصار) نقلاً عن الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة؛ لابن شداد: 1/ 15، 16.
(2) يتيمة الدهر: 1/ 54، 55 وبه أمثلة كثيرة.

يذكّي نار العداوة بين الشعراء، حتى يشحذ أذهانهم للتحقيق وراء كل غريب نادر، فقد قال ذات يوم لندمائه: أَيْكُمْ يَجِيزُ قَوْلِي وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا سَيِّدِي (يعني أبا فراس الحمداني):

لَكَ جِسْمِي تُجْلُهُ فَدَمِي لِمَ تُجْلُهُ
لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ (م) فَلِمَ لَا تُجْلُهُ

فارتجل أبو فراس وقال:

أَنَا إِنْ كُنْتُ مَالِكًا فَلِيَ الْأَمْرُ كُلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضيعةً بِمَنْجٍ تَغْلُ أَلْفِي دِينَار.⁽¹⁾

وهكذا كان مجلسه ندوة شعرية يلقي فيها فحول شعراء العصر أفضل ما عندهم، وسيف الدولة الشاعر يطرب لهذا ويعرض عن ذاك، يمنح هذا ويمنع ذاك... وابن جني يستمع إلى هذا النهر المتدفق من الشعراء فينهل ويعلّ بلا حدود، ورَبَّ قَارِيٍّ كحالب وسامع كشارب.

وفي مجال النقد: كان سيف الدولة يقف موقف الناقد البصير الذي يزن الكلام بميزان الذهب، وفي تقديره أنه كان أولى من أبي بكر على بن صالح الكاتب؛ يقول المتنبي فيه:

مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيبِ لَدَيْهِ يَضَعُ التَّوْبَ فِي يَدَيْ بَرَّازٍ
وَلَنَا الْقَوْلُ وَهُوَ أَدْرَى بِفَحْوَاهُ (م) وَأَهْدَى فِيهِ إِلَى الْإِعْجَازِ⁽²⁾

حقاً لقد كان سيف الدولة ناقدًا بصيرًا، يتمتع بدوق نقدي مرهف، وبدراسة بتضاريس الخريطة الشعرية العربية، وبقدرة هائلة على الوقوف على أسرار النصّ دون معاناة، وحسبنا ما رَوَى أَنَّ الْمُنَبِّيَّ لَمَّا أَنْشَدَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ قَصِيدَتَهُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

(1) يتيمة الدهر: 43 / 1.

(2) ديوان المتنبي، ص 190، 191.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
فلما بلغ قوله فيها:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِمَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَتَعْرُكَ بِاسِمٍ

قال: قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتقد على امرئ القيس بيتيه:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّدَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقْلُ لِيَخِيلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

وبيتناك لا يلتئم شطراهما، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين، وكان ينبغي لامرئ القيس أن يقول:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلُ لِيَخِيلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرِّقَّ الرَّوِيَّ لِلذِّدَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلْخَالِ

ولك أن تقول:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِمَوَاقِفِ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَتَعْرُكَ بِاسِمٍ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةً كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

فقال: «أيد الله مولانا، إن صحَّ أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك، لأن البزاز يعرف جملة، والحائك يعرف جملة وتفاريقه، لأنَّه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنَّا قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السباحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازل الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى، وهو الموت ليجانسه، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت: (ووجهك وضَّاح وتعرُّك باسم) لأجمع بين الأضداد في المعنى،

وإن لم يتسع اللفظ لجمعها.. فأعجب سيف الدولة بقوله، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات، وفيها خمسمائة دينار»⁽¹⁾.

وهو مثال يدل على ما كان يتمتع به الرجلان من ذوقٍ وحسٍّ مرهف، ودراسة واعية للخريطة الشعرية، وما أثير حولها من جدل ونقد.

وقد كانت هذه المحاورات النقدية - إن صحَّ التعبير - تدور كل يومٍ وليلة ما دام هناك شاعر يفيض لسانه بنهر الإبداع، ومتلقٍ واعٍ يسبر أغوار الكلام كما يسبر البراز والحائك أنواع الثياب، وكلا النوعين موجودان بكثرة في رحاب سيف الدولة.

ويُروى: «أن أبا الحسن محمد بن أحمد المعروف بالشاعر المغربي أنشد سيف الدولة قول المتنبي:

رَأَيْتَكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالٍ
فَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فقال - وكان المتنبي حاضراً - : هذا البيت والذي يتلوه لم يسبق إليه، فقال سيف الدولة: كذا حدَّثني الثقة: أن أبا الفضل محمد بن الحسين قال كما قلت، فأعجب المتنبي واهتزَّ، قال: فأردت أن أحركه فقلت: إلا أن فيه عيباً في الصنعة، فالتفت المتنبي التفات حنقٍ وقال: ما هو؟ قلت: قولك (مستقيمٌ في مُحالٍ)، والمُحال ليس من ضد الاستقامة، بل ضدها الاعوجاج.

فقال الأمير: هب القصيدة جيمية فكيف تعمل في تغيير قافية البيت الثاني؟ فقال عَجْلاً كَرَّدَ الطرف (فإن البيض بعض دم الدجاج) فضحك، ثم ضرب بيده الأرض وقال: حسنٌ مع هذه السرعة إلا أنه يصلح أن يباع في سوق الطير، لا مما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن»⁽²⁾.

(1) انظر الخبر في: يتيمة الدهر: 1/ 43، 44، شرح الواحدي؛ ص 552، معجز أحمد: 3/ 428، الصبح المنبي؛ ص 85، وبيتا المتنبي في ديوانه؛ ص 377 وبه القصة، وبيتا امرئ القيس في ديوانه؛ ص 35.

(2) شرح الواحدي؛ ص 395، التبيان: 3/ 120، 121، وبيتا المتنبي في ديوانه؛ ص 258.

وهكذا كان المجلس حافلاً بما لَدَّ وطاب من لغةٍ وشعر ونقد، ومن شأن ذلك أن يصقل الملكة النقدية لكل من يلم به، حتى قال أبو بكر الخوارزمي وهو الذي دوّخ البلاد طويلاً وعرضاً، ولكنه أعجب بهذا المجلس ألياً إعجاب حيث صقله كلّ الصقل: «ما فتق قلبي، وشحد فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حدّ لساني، وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب، ورداء الحداثة قشيب»⁽¹⁾.

فإذا كان هذا حال أبي بكر الخوارزمي الذي لم يمكث في حلب كثيراً، فما بالك بابن جنّي الذي قضى خمس سنوات تشنّف فيها أذنه بهذا السيل المتدفق من العلوم والمعارف؟

وقد يقال: لمْ ترد لابن جنّي آراء نقدية في مجلس سيف الدولة الحمداني؟

أقول: أنّه كان لا يزال في عهد الطلب، ومن حوله أساتذته الأجلاء فأثر الاستماع والاستمتاع، مما صقل ذهنه الوقاد، فكان المجلس - لا شك - عاملاً من عوامل تكوينه، حيث ظل لا ينسى دروسه ما دام حيّاً.

(1) يتيمة الدهر: 1/ 35، 36.

خامساً: صحة المتنبي

عندما وصل ابن جني إلى حضرة سيف الدولة الحمداني بحلب عام 341 هـ لقي المتنبي الذي سبقه إلى البلاط الحمداني بأربع سنوات، إذ قدّم حلب عام 337 هـ ليلتقي نابغتا العراق على المائدة الحمدانية الحافلة بما لذ وطاب من الفنون والآداب، فأحبّ كلّ منهما الآخر حباً جمّاً، إذ وجد كل منهما في الآخر ضالته التي ينشدها، وبُعَيْته التي يلتمسها وجد ابن جني في المتنبي مثال الشاعر المُفْلِقِ المفعّم بروح العروبة، النابض قلبه بمعاني الثورة والقوة، المتشربة نفسه بدواعي التغيير، الناطق لسانه بآيات السحر في أبيات الشعر. ووجد المتنبي في ابن جني مثال العالم النحرير، الشغوف بالعربية، الغائص في بحرّها إلى أعماق الأعماق بحثاً عن الدرّ المكنون، فتلاقى القلبان وتعانق الحبيبان.

ويؤكدنا أن نردّد هذه الصحة إلى عدة أسباب:

أولاً: أنّهما عراقيان مغتربان؛ إذ وُلِدَ المتنبي بمحلة كندة بالكوفة، ووُلِدَ ابن جني بالموصل؛ فكلتا الشجرتين قد نبتت في تربة العراق الخصبة آنذاك ببواعث العبقرية والإبداع، ثم جمع البَيْنَ بينهما في حلب فاشتمَّ كلّ منهما في الآخر نسيم العراق وحنّت الدماء في عروقهما. فمن الملاحظ أنّ المغترب يقضي أياماً في سبيل البحث عن رجل من قُطره حتى يصحبه في مُغْتَرَبِهِ، فما إن تقع عيناه عليه حتى يجلس معه في غربته ويأنس به من وحشته وإن لم يسبق لهما لقاء قط، ومن قديم رفع امرؤ القيس عقيرته عندما أدركته المنية ببلاد الروم قائلاً: ⁽¹⁾

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْمَزَارَ قَرِيبٌ وَأَلَيْ مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ
أَجَارَتْنَا إِنْنا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ثانياً: التقارب السنّي بين الرجلين؛ إذ وُلِدَ المتنبي عام 303 هـ، وقد رجّحنا أن يكون ميلاد ابن جني عام 302 هـ، فساعد ذلك على نمو شجرة الصداقة نمواً طبيعياً لا يعرف

(1) ديوان امرئ القيس؛ ص 357.

التكلف، لأنَّ السن عندما تتباعد تحول دون الصداقة كُلف معينة تلك التي تلزم الصغير بتوقير الكبير وتلزم الكبير بعدم طرح رداء الاحتشام وترك الإسفاف مع من هو في طبقة أبنائه أو تلاميذه، أما عند تقارب السنَّ فإنَّ الكُلف تزول ليتحدث كل رجل إلى صديقه بآماله وآلامه، بأشواقه وأشجانه دون تحرج أو تكلف.

ثالثاً: سريان روح العروبة في دم كل منهم، فالمتنبّي يعشق العرب حتى النخاع، ويبغض العجم بلا حدود، بل إنَّه ما رغب في بنى حمدان إلا «لما عرفوا به من الصراحة في الحكم، والدهاء في السياسة، والعصبية للعربية الصريحة، وبغضهم لحكام الأعاجم الذين كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في الدولة كلّها».⁽¹⁾

وهي روح سارية في عروق المتنبّي منذ نعومة أظافره، ألم يصرخ في مدحه لمحمد بن إسحاق التنوخي وهو مازال صبياً غض الإهاب بقوله:⁽²⁾

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهَمَمُ	أَحَدْتُ شَيْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقِدَمُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا	تُفْلِحُ عَرَبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبُ	وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهَا أُمَمُ	تَرَعَى بَعْدُ كَأَنَّهَا غَنَمُ؟

تلك هي روح المتنبّي صبيّاً، فما بالك به وقد بلا الأيام، وعرك السياسة، ودرى من أخبارها وأسرارها ما كان عنه مغيباً؟ وتلك نعمة لذيدة جدّاً في أذن ابن جني، محبّة إلى قلبه، يود لو سمعها كل ساعة في عصر طغى فيه الأعاجم المستبدون القابضون على أزمنة الحكم بمقابض من حديد.

رابعاً: حبُّ المتنبّي اللغة العربية وتبحُّره في علومها، وفي يقيني أنّه لو لا انصراف المتنبّي إلى قول الشعر والتغني بمآثره ومآثر ممدوحيه، لكان أحد أكبر علماء العربية في القرن الرابع

(1) المتنبّي؛ محمود شاكر، ص 222.

(2) ديوان المتنبّي؛ ص 84، 85.

الهجري، فقد عشق اللغة العربية منذ صغره واطَّلَعَ على دقائقها وحفظ منها قدرًا صالحًا، ساعدته على ذلك ذاكرته الواعية، فقد روى الخطيب البغدادي عن أحد الورّاقين قال: «ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عيدان قط، فقلت له: كيف؟ فقال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتابًا من كتب الأصمعي... يكون نحو ثلاثين ورقة لبيعه، قال: فأحدّ ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: يا هذا؛ أريد بيعه وقد قطعني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبعه، فقال له: إن كنت حفظته فما لي عليك؟ قال: أهبّ لك الكتاب، قال: فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه علىّ إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كمّه وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي، قال: فمنعناه منه، وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام، فتركه». ⁽¹⁾ فغلام في هذه السن يحفظ كتابًا للأصمعي في جلسة واحدة يحمل في نفسه استعدادًا وموهبة عظيمة، ولا غرو فقد روى: «أن ابن العميد كان يجلس المتنبي في دسّته ويعقد بين يديه، فيقرأ عليه الجمهرة لابن دريد، لأنّ المتنبي كان يحفظها عن ظهر قلب». ⁽²⁾

ولذا قال عنه ابن العديم: «وكان عارفًا باللغة، قيّمًا فيها». ⁽³⁾

كما استشهد ابن الشجري بشعره وقال: «وقال المتنبي وهو من العلماء بالعربية». ⁽⁴⁾

ويؤكد ذلك ما قاله ابن خلكان عن المتنبي: «وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلّعين على غريبها وحوشيّها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، حتى قيل: إنّ الشيخ أبا عليّ الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة قال له يومًا: كم لنا من الجموع على وزن فعلى؟ فقال المتنبي في الحال: حبلى وطرّبي، قال الشيخ أبو عليّ: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ عليّ أن أجد لهذين الجمعين ثالثًا فلم أجده، وحسبك من يقول في حقه أبو عليّ هذه المقالة» ⁽⁵⁾.

(1) تاريخ بغداد: 4 / 103.

(2) بغية الطلب في تاريخ حلب: 2 / 639.

(3) بغية الطلب في تاريخ حلب: 2 / 659.

(4) أمالي ابن الشجري: 2 / 366.

(5) وفيات الأعيان: 1 / 120، 121.

فهذه الأخبار والأقوال وغيرها كثير تدل بها لا يدع مجالاً للشك على أن المتنبي كان متبحراً في علوم العربية، دارساً لقواعدها نحواً و صرفاً، حتى إنه كان يدلُّ بهذه المصطلحات في شعره كقوله:

إِذَا كَانَ مَا تُنْوِيهِ فِعْلاً مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ⁽¹⁾

وقوله:

حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقَ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنْ⁽²⁾

وهي نعمة حبشية جداً إلى نفس ابن جني الذي أخلص نفسه لهذه العلوم، وكأنه وجد فيه عالماً نحرياً، علاوة على كونه شاعراً مُلهماً ملاً الدنيا وشغل الناس.

لهذه الأسباب - في تقديري - أحب كل منهما الآخر حباً جمّاً يقوم على الاحترام والتقدير، فالمتنبي يقول عن ابن جني: «هذا الرجل لا يعرف قدره كثير من الناس»⁽³⁾. وكان دائماً يحيل الإجابة عن مشكلات شعره على ابن جني؛ ففي مسالك الأبصار «... وكان أبو الطيب المتنبي إذا سُئِلَ عن معنى قاله، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دلّ عليه، وقال: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جني، فسلوه، فإنه يقول ما أردت وما لم أرد»⁽⁴⁾. وكان يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني»⁽⁵⁾.

وابن جني دائم الثناء على المتنبي؛ حيث يقول في مقدمة الفَسر: «لقد شاهدته على خلق قلمًا تكامل إلا لعالمٍ موفق، فأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها، واستنقاؤه لها فما يدفعه إلا ضدٌّ، ولا يستحسن معاندته إلا نذٌّ، وما أحسبني رأيت أحداً يتناكر فضل هذا الرجل ردحاً من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله، وإذا تأملت هذا من

(1) ديوان المتنبي؛ ص 376، والتبيان: 3 / 282.

(2) ديوان المتنبي؛ ص 155، والتبيان: 4 / 210.

(3) بغية الوعاة: 2 / 132.

(4) مقدمة الخصائص: 1 / 23 نقلاً عن مسالك الأبصار: 4 / 306.

(5) إشارة التعيين في تراجم النحويين؛ ص 200.

أحوال هذه الطائفة وجدته كما ذكرت، وإنما ذلك لسُمُو مطالعته، وحلو مقاطعه، وقوّة مادته»⁽¹⁾.

وهي لهجة تنم عن مشاعر التقدير لشاعر العربية الفدّ، الذي لم ينسهِ صديقه قط، بل ظلّ يستشهد بشعره في المعاني، ويروي عنه الأخبار، ويسمّيه شاعرنا، ولا يورد ذكره إلا محفّوظاً بإكليل من الثناء؛ كقوله: «حدّثني المتنبي شاعرنا وما عرفته إلا صادقاً»⁽²⁾.

وعلى الرغم من هذا الثناء المتبادل بين الرجلين فقد ظلت قضية صُحبة المتنبي مثار جدل محتدم بين المؤرّخين قدامى ومحدثين - وهنا نحاول عرض آراءهم ووضعها على ميزان النقد المنصف دون تحيز أو مجاملة:

* هل التقى المتنبي بابن جني؟

هذا العنوان مقالة نشرها الأستاذ عبد الغني الملاح في مجلة «المورد» العراقية، أنكر فيها حصول لقاء أصلاً بين الرجلين، ناهيك عن الصحبة الأكيدة التي تحدّثنا عنها.

بدأ الكاتب مقالته بالتوهين من قيمة الرواية والطعن في الرواة، إذ جعل يتساءل حول «صحة الرواية بشكل مطلق بعدما مرّت هذه الرواية بسلسلة من رواة واقعيين تحت تأثير الرغبة الشخصية والغرض الرسمي، وما يحيط بهما من تناقضات فكرية ومذهبية وسيطرة السلطان ونظرية الحق الإلهي في الملوك، بمفاهيم عصر الرواة أو صانعي الرواية... وإن ذلك قد أدّى إلى انتشار الأساطير بين طبّات كتب التراث، وازدحام أسماء الرواة وتنافسها في العطاء المتناقض للتأييد أو الرفض»... وانتهى من هذا التقديم إلى القول بأنّه «ليس أمامه في ذلك إلا أحد أمرين: إما الأخذ بقُدسية الرواية؛ فيكون جزءاً من الانحراف الفكري الذي سببته قرون ما بعد الإسلام، وإمّا أن يهشّم قُدسيّتها ويربط بين الانفعالات التي هيأت

(1) الفسر: 1/ 20، 21.

(2) الخصائص: 1/ 240.

ظروف الرواية وبين الموضوعية الإنسانية وعوامل تكوين الشخصية المستندة إلى السلوك ودوافعه»⁽¹⁾.

هذا سُمّ نفثه الناقد بين السطور، فليت شعري هل جاء القرآن وجاءت السُّنة إلا بالرواية؟ فإذا هَشَمْنَا قُدسية الرواية كان لكل دعيّ مختل العقل أن ينكرهما بحُجّة أن الإيمان بالرواية جزء من الانحراف الفكري !!

إنَّ التراث العربيّ فيه روايات ضعيفة وموضوعة نعم، ولكنّ التصدي لها لا يكون بهذه الصورة المنحرفة، وإنّما يكون بنقدها نقدًا علميًا يطال المتن والسند جميعًا، مع معرفة أحوال الرواة وما إلى ذلك، كما يصنع علماء الحديث - بارك الله فيهم - من خلال علمهم العبقري (علم الجرح والتعديل).

ثم إنَّ التحليلات النفسية وحقائق علم النفس التي يريد الملاح التائه أن يستند إليها ليست قواعد ثابتة، وإنّما آراء شخصية تصدّق طورًا وتكذّب أطوارًا، ولا أجد في الرد على هذا المسلك البائر أصدق من قول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: «إنَّ هذا المذهب كفيّل أن يمزّق جميع الحقائق والأحداث التي يحتضنها الزمن في هيكله القدسي القديم الماثل أمام الأجيال، بفعل سبحات من أخيلة التوسم وشهوة الذات، وعصبية النفس والهوى، وكم من حقيقة مُسخت، وأحداث نُكست، وأمجاد دُثرت، وبرآء ظلموا تحت سلطان هذه المحكمة الوهمية الجائرة»⁽²⁾.

وبعد هذه المقدمة الملأى بالظنون يواصل الملاح مقالته قائلاً: «واستغل الرواة المطاردون للمتنبّي شرح ديوانه من قبل عثمان بن جنّي بعد موته فجعلوه تَرْبًا له ومعاصرًا، أو صاحبًا لَزِمَهُ دهرًا طويلًا في حِلّه وترحاله، كما ذكر الثعالبي في «اليتيمة»، بينما تُشير كل المؤشرات الموضوعية التي تتعلق بالسلوك إلى فارق العمر بينهما، وإلى عدم التقائهما، وإلى اختلاف في

(1) هل التقى المتنبّي بابن جنّي؟ عبد الغني الملاح - مجلة المورد، م 6، ع 3، سنة 1977 م، ص 141.

(2) فقه السيرة؛ د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص 23.

مسيرة حياة كل منهما - ومن هنا نبدأ التمحيص لتتوصل إلى خرافة كل ما قيل عن صداقة النحوي للشاعر ومصاحبته له⁽¹⁾.

وحتى ينفي الملاح التائه هذه الخرافة أخذ يصادر كل المرويات التراثية دون سند علمي، وإنما هي شهوة النفس المريضة التي يريد إشباعها لنفي اللقاء، فإذا قال المتنبي: صديقنا، أو الشيخ... أنكر ذلك وقال: إنَّ فارق السن بينهما يمنع تلك الصداقة.

وإذا تحدّث الرواة عن وصول ابن جني حلب سنة إحدى وأربعين يقول: ما المانع أن كون محرّفاً عن رقم آخر كسنة وأربعين مثلاً؟

وإذا قال ابن جني: حدّثني من شاهد المتنبي، فكأنه ينكر مشاهدته الشخصية له، وإنما ينقل عن الآخرين الذين شاهدوه!!

وإذا لم يترحم ابن جني على المتنبي في روايته عنه، كما ترحم على شيخه أبي عليّ الفارسي في «الخصائص»، فهذا دليل على أن الخبر ليس من رواية ابن جني، بل نقله عن آخرين لم يتعودوا الترحم على الموتى!

وإذا اتهم ابن فورجة أبا الفتح بالكذب (وسوف نفنّد ذلك في موضعه إن شاء الله)⁽²⁾ صدق اتهامه واستفاد عدم حصول اللقاء.

وإذا رثى ابن جني المتنبي دون أن يذكر ما يدل على علاقتها الشخصية؛ دلّ ذلك على عدم حصول اللقاء، ثم عاد وأنكر المروية أصلاً بدعوى حصول إقواء فيها، حيث أنّها بائنة مكسورة والبيت الثاني منها:

سَلَيْتَ ثَوْبَ بَهَاءٍ كُنْتَ تَلْبَسُهُ كَمَا تُخْطَفُ بِالْخَطِيئَةِ السَّلْبُ⁽³⁾

(1) هل التقى المتنبي بابن جني؟ - مقالة المورد السابقة - ص 142، وانظر كل ما سيأتي بها من ص 141 إلى 149.

(2) انظر ما سيأتي بهذا البحث: ص 180-187.

(3) البيت ضبطت قافيته بالضم في معجم الأدباء: 463 / 3.

أقول: هذا سوء فهم منه، وقع فيه لأنّه رآها مرفوعة في معجم الأدباء؛ فلم يعمل ذهنه في موقعها، والحقّ أنّ الذي ضمها اعتبرها نائب فاعل، وأنا أقول: أنّها مجرورة لأنّها صفة للخطيّة؛ أي الرماح الخطيّة التي تسلب أرواح الأعداء وغنائمهم، ونائب الفاعل والجار والمجرور أهو هو ضمير مستتر تقديره: هو يعود على ما يفهم من سياق الكلام من إرادة المسلوبات من غنائم وأرواح.

ولو سلّمنا بوقوع إقواء، فهل كلّ قصيدة بها إقواء تكون منحولة، وهي أكثر من تحصر؟

ثم خلّص الرجل إلى القول: بأنّ كل ما قاله ابن جنّي حول أحاديث المتنبيّ له ما هي إلا خيال ووهم مقال، ولا أخالنا بحاجة إلى أن نتهم ابن جنّي بأنّه أصيب بمرض أحلام اليقظة في كبره، فأخذ يتوهم أحداثاً لم تقع، كما توهم الإسكندر المقدوني وهو يحاصر مدينة صور، فادّعى أنّه رأى هرقل الإله يُشير إليه من أسوار المدينة.

تلك أغرب طريقة لفهم المرويّات، وأسهل طريقة لنفي كل رواية لا تروق صاحبنا إذا ما اعتكر مزاجه وهو يشرب من كأس الوهم على ضفاف الفرات، وأسهل طريقة كذلك لاتهام الثقات الصادقين بالكذب والاختلاق وزرع الأساطير وصنع الروايات، ومن العجيب أنّه يقبل روايات الجرح ولا يقبل روايات التعديل، ويقدم السيئة على الحسنة، دون أن يستند إلى أساس علمي مقبول.

فإذا كان دكتور طه حسين قد شكّ في مرويّات الشعر الجاهلي، فإنّه ذكر أسباباً وأتى بشواهد تدعّمه، ولكنّ ليست بالسعة التي يريدها... أمّا الملاح التائه فإنه لا يشك بل يريد أن يهشّم قدسية التراث وهو على كرسيه الوثير أو الكسير.

وأظنّني لست في حاجة إلى الرّدّ على كل جملة قالها، فإنّ مئة رواية، بل مئات الروايات لتقف صُلبة أمام دعاوى المغرضين وأباطيل المشكّكين الذين يستهينون بكتب التراث ومرويّات الأقدمين.

* هل التقيا بعد مغادرة حلب؟

إذا كان ابن جني قد رحل عن حلب عام 346 هجرية، وهو العام الذي رحل فيه المتنبي عن حاضرة بني حمدان، دون أن نجد خبراً يُميز السابق من اللاحق، فإنَّ سؤالاً يلح علينا هو: هل التقيا بعد ذلك في بغداد أو شيراز؟

نحن نعلم أن ابن جني بعد مغادرة حلب اصطحبه شيخه أبو علي الفارسي إلى بغداد، وظلَّ يتنقلان بين بغداد وشيراز، حتى اصطفيا بغداد مقاماً، فألقيا فيها عصا التسيار، والمتنبي بعد خروجه أو هروبه من مصر ممطياً جواد الليل، ملتحفاً رداء التخفي ذهب إلى العراق، وهناك ناظر الحاتمي في بغداد، ثم رحل عن بغداد إلى شيراز ليمدح عضد الدولة وابن العميد، فرحلة السفر تكاد تكون متقاربة؛ فهل جمعت الأيام بينهما بعد حلب؟

هنا نجد الدكتور محسن غياض يذهب إلى انقطاع العلائق بينهما بعد حلب؛ قائلاً: «وقد ذكر نفرٌ من القدماء والمحدثين: أنَّ أبا الفتح قرأ على أبي الطيب في حلب وشيراز، أما قراءته عليه في حلب وصحبته فيها، فقد قامت الشواهد عليها وثبتت صحتها، ولكن لا أطمئنُ إلى ما زعموه من قراءته عليه بشيراز أو صحبته له هناك، وأنا أعتقد أنَّ العلاقة بينهما انقطعت عند مغادرة المتنبي حلب إلى مصر ثم ذهابه من بعدها إلى العراق وبلاد العجم، ولي على ذلك أدلة منها:

1- سؤال أبي الفتح لعلی بن حمزة عن أخبار أبي الطيب وأشعاره، وكان هذا قد استضافه ببغداد وصحبه إلى بلاد فارس.

2- قول أبي الطيب وقد سُئل عن تفسير بيت له بشيراز: لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسره.

3- قول عمر بن ثابت الثماني تلميذ ابن جني وراوي هذا الكتاب: وهذه القصيدة من الفارسيات لم يقرأها شيخنا عليه - أي على المتنبي -.

وأقول: إن بعض القدماء قد تشككوا في التقائهما بشيراز خلاف عمر بن ثابت الثمانيني، منهم: ابن فورجة؛ الذي علّق على تفسير ابن جني قوله المتنبي: ⁽¹⁾

بِعَضْدِ الدَّوْلَةِ اِمْتَنَعْتُ وَعَزَّتْ وَلَيْسَ لِعَيْرِ ذِي عَضْدٍ يَدَانِ
وَلَا قَبْضٌ عَلَى الْبَيْضِ الْمَوَاضِي وَلَا حَظٌّ عَلَى السُّمْرِ اللَّدَانِ

قائلاً: «على أن هذه القصيدة لم يقرأها على أبي الطيب، فما أظنه لقيه بعد خروجه إلى فارس» ⁽²⁾.

ومن بعد ابن فورجة تشكك: الزوزني؛ حيث يقول: «والشيخ أبو الفتح لم يسمع منه العميديّات، وما بعدها؛ لأنّه لم يلقه بعد خروجه من بغداد إلى فارس» ⁽³⁾.

ثم أقول: إن قول الدكتور محسن غياض (إن العلاقة بينهما قد انقطعت بعد مغادرة المتنبي حلب إلى مصر) قولٌ بجانب للصواب، فقد تظاهرت الأدلة التي تقطع بحدوث لقاءات كثيرة في بغداد، بل التقيا في شيراز كذلك، وإن كانت لقاءات عابرة لم يتمكن خلالها ابن جني من قراءة العميديّات عليه، من تلك الأدلة:

1- قال ابن جني: حدّثني أبو عليّ الحسين بن أحمد الفسويّ قال: خرجت بحلب أريد دار سيف الدولة، فلما برزت من السور إذا أنا بفارسٍ مثلثٍ قد أهوى نحوي برُمحٍ طويلٍ وسدّده إلى صدري، فكدت أطرح نفسي عن الدابة فحشر لثامه، فإذا المتنبي، وأنشد:

نَثَرْتُ رُءُوسًا بِالْأُحْيَدِ مِنْهُمْ كَمَا نَثَرْتُ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ

(1) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي - مقدمة المحقق؛ ص 14، وقول أبي الطيب (لو كان.. في الفتح الوهبي؛ ص 182، وقول عمر الثمانيني - أيضاً - في الفتح الوهبي؛ ص 81.

(2) الفتح على أبي الفتح؛ ص 341، 342، ورواية (ولا حظّ على...) تفرد بها ابن فورجة، وفي الواحدي (ولا حظّ من السمر)؛ أي لا حظّ له من الطعن بها، ويروى بالطاء غير المعجمة وهو خفض الرماح للطعن [شرح الواحدي؛ ص 770].

(3) شرح الزوزني على ديوان المتنبي: 2/ 141.

ثم قال: كيف هذا القول؛ أحسنُّ هو؟ فقلت: ويحك؛ قد قتلتنني يا رجل. قال ابن جني: فحكيت هذه الحكاية لأبي الطيب بمدينة السلام، فعرفها وضحك منها⁽¹⁾. فهو دليل قاطع على حصول اللقاء بمدينة السلام؛ أي بغداد.

2- قال الربيعي: كنت يوماً عند المتنبي بشيراز فقبل له: أبو عليّ الفارسيّ بالباب، وكانت تأكّدت بينهما المودة، فقال: بادروا إليه فأنزله، فدخل أبو عليّ وأنا جالس عنده فقال: يا أبا الحسن؛ خذ هذا الجزء، وأعطاني جزءاً من كتاب التذكرة، وقال: اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكّرتك بهما وهما:

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمَّوْا مُرْدُ
ثِقَالُ إِذَا لَاقَوْا خِفَافٌ إِذَا دَعَوْا كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا⁽²⁾

ومعلوم أنّ ابن جني كان ملازماً أستاذه، فإذا كان الأستاذ القريب عهده بصحبة المتنبي - وقد كان من قبل مبغضاً له - قد لقيه وزاره في بيته، فما بالك بالصاحب الحميم الذي لازم أستاذه كلّ الملازمة؟

3- قال ابن جني في شرحه قول المتنبي:

أُزَوِّرُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَثْنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُعْرِى بِي

قال: «هذا معنى حسن بلفظ شريف، وحدثني المتنبي وقت القراءة قال: قال لي ابن جنزابة: يا أبا الطيب؛ أعلمت أنّي أحضرت كتيبي وجماعة يطلبون من أين أخذت هذا المعنى فلم يظفروا بذلك، وقال المتنبي: وكان عنده من الكتاب الواحد خمسون نسخة، يريد تعظيم أمر كتبه»⁽³⁾.

ووجه دلالة الخبر أنّ حوار المتنبي مع ابن جنزابة كان بمصر، فمتى روى المتنبي لابن جني ما حدث؟! مما يدل على حصول اللقاء في بغداد أو شيراز.

(1) يتيمة الدهر: 1/ 147، 148، الصبح المنبي؛ ص 85، 86.

(2) بغية الطلب: 2/ 671، الصبح المنبي؛ ص 162، 163.

(3) الفسر: 1/ 357، 358، يتيمة الدهر: 1/ 170.

4- قال ابن جني في شرح قول المتنبي:

سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحُشَّةَ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسْنَ
«حدثني المتنبي قال: حدثني بمصر فلان الهاشمي من أهل حرّان قال: أحدثك بطريفة:
كتبت إلى امرأتي وهي بحرّان كتاباً تمثّلت فيه بيتك:

بِمِ التَّعَلُّ؟ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا نَدِيمٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا سَكَنٌ
فأجابني عن الكتاب وقالت: ما أنت والله كما ذكرته في البيت، وما أنت إلا كما قال
الشاعر في هذه القصيدة:

سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحُشَّةَ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسْنَ⁽¹⁾
وهذا الخبر في الفتح الوهبي الذي حقّقه الدكتور الفاضل، ألم يسأل نفسه: إذا كان
الهاشمي لقي المتنبي بمصر، وحدثه بهذا الخبر؛ فأين حدث به المتنبي ابن جني؟ أيكون ذلك في
حلب أم بعد مغادرة حلب؟

5- قال أبو الفتح بن جني: «كنت قرأت ديوان المتنبي عليه، فلما وصلت إلى قوله:
أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْجَبُ
فلما انتهيت إلى قوله:

لَحَا اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاحًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ إِلَيْهَا مُعَذِّبُ
(وذكر أربعة أبيات بعده) فقلت له: يعزُّ عليّ أن يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف
الدولة، فقال: حدّرناه فما نفع فيه الحذر، ألسنت القائل فيه:

أَخَا الْجُودِ أَعْطَى النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلَا تُعْطِينَ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلُ
فهو الذي أعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه⁽²⁾.

(1) الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي؛ ص 176.

(2) بغية الطلب: 2/ 673، وفيات الأعيان: 1/ 122، شذرات الذهب: 3/ 15، الصبح المنبي؛
ص 99، 100.

ومعلوم أنَّ القصيدة من الكافوريات، فمتى قرأها عليه، ودار بينهما هذا الحوار؟
وحول القصيدة نفسها خبرٌ آخر يحمل الدلالة نفسها؛ فقد قال أبو الفتح بن جني: «لما
قرأت على أبي الطيب قوله في كافور:

وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بَدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَاطْرَبُ

فقلت له: لم تزد على أن جعلته أبا زنة... فضحك أبو الطيب».⁽¹⁾

فهذه الأخبار وغيرها تدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك على حصوله لقاءات عديدة في بغداد،
وخلال هذه اللقاءات قرأ ابن جني الديوان على الشاعر.

ولا يعترض على ذلك بأن ابن جني قد سأل علي بن حمزة عن أخبار أبي الطيب، لأن ابن
جني لم يلزم المتنبي كظله، على حين أقام المتنبي في دار علي بن حمزة، فلا شك أنه رأى منه
أشياء، وسمع منه من الأخبار والأشعار وتفسير الشعر ما لم يسمعه ابن جني، ذلك الشغوف
بالمتنبي شغفاً يجعله طامعاً دائماً في المزيد من الأخبار والأسرار.

وإحالة المتنبي وهو بشيراز على ابن جني، وقول الثماني يؤكد ما ذهبنا إليه من أن ابن
جني لم يقرأ العميديات على المتنبي؛ وهي خمس قصائد فحسب، ولو توسعنا وقلنا: أنه لم يقرأ
العضديات أيضاً، وهي ثماني قصائد، كان مجموع ما لم يقرأه على الشاعر ثلاث عشرة قصيدة
فقط من ديوانه الضخم، وإن كان ذلك لا يمنع من حصول اللقاء؛ حيث كان مصاحباً لأبي
علي الفارسي الذي دخل على المتنبي مع علي بن عيسى الرّبعي.

وهذا الذي دلّلت عليه بما فيه بلاغ ومقنع يثُلُّ ما قاله دكتور مندور: «لقي ابن جني المتنبي
لأول مرة فيما يظهر بحلب، لقيه بتحفظ، ثم لم يلبث أن أعجب به، ونعود فنرى ذكره في
العراق بعد عودة الشاعر من مصر، فمنذ ذلك الحين لم يفارقه، لزمه في الكوفة ثم في بغداد،
وعندما عاد المتنبي إلى الكوفة عاد معه، وأخيراً لازمه في سفره إلى ابن العميد وعضد الدولة،
والظاهر أنه كان معه ليلة قتله».⁽²⁾

(1) الصبح المنبي؛ ص 117. وأبا زنة: كنية القرد [لسان العرب (زنن) 3/ 1875].

(2) النقد المنهجي عند العرب؛ د. محمد مندور، ص 232.

وهذا رأيي غريب حقاً، لست أدري من أين جاء به؟ ولعله لما سمع عن ملازمة ابن جني للمتنبّي نسج من خياله هذه العبارات الخالية من التحقيق والتدقيق، بل إنّها لا تثبت مطلقاً أمام ميزان النقد المحقق والتأمل المدقق كما تبين لنا.

* آثار هذه الصّحبة:

لم يكن اللقاء بين الرجلين مجرد لقاء عالم بعالم، بل كان مع ذلك لقاء محبّ بمحبّ، فقد شغف كل منهما الآخر حبّاً، تسلّل في أعماق النفس، وظهر على مظاهر السلوك العملي لابن جني في حديثه وفي كل كتبه؛ من ذلك:

1- أنّه أول من شرح ديوانه مضطلعاً بهذه المهمة الشاقّة، مرتاداً تلك الطريق الوعرة، بل إنّهُ ألّف ثلاثة كتب تدور في فلك شعر المتنبّي (وسوف نتجلى هذه المسألة عن الحديث عن هذا الشرح إن شاء الله)⁽¹⁾.

2- أنّه لم ينس أبا الطيب في جُلّ كتبه، أدبية كانت أم لغوية، فهو دائماً لهجّ بذكره، دائم الثناء عليه، كثير الذّكر لأخباره، لا يكف عن إقحامها حتى في أبعد كتبه عن الشعر، وأشدّها خلوصاً لقضايا اللغة - وسوف ترد نماذج ذلك عند الحديث عن دراساته اللغوية.

3- أنّه لما بلغهم خبر مقتلته رثاه بقصيدة حارة، ملؤها الحسرة والتفجّع والأين والتوجع، فقد أفقدت به المنية الآداب زهرة طالما فاحت، وفارساً طالما خبر الأيام؛ يقول ابن جني:⁽²⁾

غَاضَ الْقَرِيضُ وَأَذَوْتُ نُصْرَةَ الْأَدَبِ وَصَوَّحْتُ بَعْدَ رَيِّ دَوْحَةِ الْكُتُبِ

(1) انظر ما سيأتي بهذا البحث: ص 131.

(2) القصيدة في معجم الأدباء: 3/ 463، دمية القصر: 3/ 1482، الوافي بالوفيات: 6/ 342. أذوت: ذبلت، صوّحت: يبس نباتها، الخطيّة: رماح تُنسب إلى بلدة بالبحرين، الجُلّي: الأمر الخطير، انشعبت: اتفرقت، قلباً جميعاً: ثابتاً شجاعاً، حلب أشطر الدهر: خبر الأيام وجربها، تمطو: تسير، وإن: متمهّل، وصّب: تعب، أطراب: جمع طرب؛ ويطلق على الفرح والحزن، والمراد أحزان، لقى: ملقى؛ يُشير إلى قتله، النوب: جمع نائبة وهي المصيبة، خدن المساعي: صديق المكارم، خوص: جمع خوصاء؛ وهي الغائرة العين الحديدية البصر، الأكوار: الرّحال، الشُّعب: جمع شعيب؛ وهي المزايدة.

سُبَيْتَ ثَوْبَ بَهَاءٍ كُنْتَ تَلْبَسُهُ كَمَا تُخْطَفُ بِالْخَطِيئَةِ السَّلْبِ
مَا زِلْتَ تَصْحَبُ فِي الْجَلِيِّ إِذَا انْشَعَبَتْ قَلْبًا جَمِيعًا وَعَزْمًا غَيْرَ مُشْعَبِ
وَقَدْ حَلَبْتَ لَعَمْرِي الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ تَمْضِي بِهِمَّةً لَا وَانَ وَلَا وَصِبِ

حتى يقول معرباً عن جبال الأسي الدفينة في أعماقه، وأمواج الأحزان التي ترغي وتزبد بين جنبات قلبه:

بَاتَتْ وَسَادِي أَطْرَابُ ثَوْرُقْنِي لَمَّا غَدَوْتُ لِقَى فِي قَبْضَةِ الثَّوْبِ
عُمِرْتَ خِدْنَ الْمَسَاعِي غَيْرَ مُضْطَهَدِ كَالْمُصَلِّ لَمْ يَدْنَسْ يَوْمًا وَلَمْ يُعَبِ
فَاذْهَبْ عَلَيْكَ سَلَامُ الْمَجْدِ مَا قَلَقْتُ خُوصُ الرِّكَائِبِ بِالْأَكْوَارِ وَالشُّعْبِ

وهي قصيدة عامرة بكل معاني الحسرة الموجهة على فقدان فارس الكلمة المغوار، وشاعر العربية العظيم.

4- أنه نجح في تقريب شعر أبي الطيب إلى قلب أستاذه أبي على الفارسي الذي كان في أول الأمر مُبْغِضًا للمتنبي، ربما لم يحس فيه من الكبر والتعالي، فرآه لا يأبه للنحاة الجالسين بمجلس سيف الدولة؛ وكثير ما هم، وينظر إليهم نظرة مُزَوَّرٍ غير مكترث، ورآه يعزف مفاخره على قيثار النفج والاستطالة، ويدق طبول العنجهية المتعالية، التي يحاول العلماء البعد عنها ملتحفين رداء التواضع والخشية.

لكن التلميذ ليس على شاكلة أستاذه، إنه شارب من كأس المحبة حتى الشمالة، فأثى يلتقي الطرفان، وهنا ظل ابن جني يفتل لأستاذه في الدَّروّة والغارب، حتى ألان العصيّ من قلبه، فبدل بالبغضاء محبة، وبالشَّان مودة، ودخل شعر المتنبي قلب أبي علي الفارسي من أوسع الأبواب، وقد وردت في ذلك أخبار جيدة تدل على وفاء ابن جني للرجلين معاً.

ولعل بداية المودة في ذلك الخبر: «فقد قال أبو علي يوماً: اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحت فيه، فبدأ ابن جني وأنشد:

حُلَّتْ دُونَ الْمَزَارِ فَالْيَوْمَ كَوُزَّتِ (م) لَحَالِ النُّحُولُ دُونَ الْعِاقِ

فاستحسنه أبو علي واستعاده، وقال: لمن هذا البيت؟ فإنه غريب المعنى، فقال ابن جني: للذي يقول:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْتَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فقال: والله هذا حسنٌ بديعٌ جداً، فلمن هما؟ قال: للذي يقول:

أَمْضَى إِرَادَتَهُ فَسَوْفَ لَهُ قَدْ وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى فَتَمَّ لَهُ هُنَا

فكثر إعجاب أبي علي، واستغرب معناه، وقال: لمن هذا؟ فقال ابن جني: للذي يقول:

وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضِرُّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

فقال: هو حسنٌ والله، وقد أطلت يا أبا الفتح؛ فأخبرنا من القائل؟

قال: هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله، ويستقبح زيّه وفعله، وما علينا من القشور إذا استقام اللبُّ؟ قال أبو علي: أظنك تعني المتنبّي؟ قال: نعم، قال: والله حبّيته إليّ، ونهض ودخل على عضد الدولة فأطال في الثناء على أبي الطيّب، ولما اجتاز به استنزله واستنشدته، وكتب عنه أبياتاً من الشعر.⁽¹⁾

فهذا الخبر المهمّ يدل على حصول لقاءات في شيراز مما يؤكد رأينا السابق، ويدق مسماراً في نعش ما ذهب إليه دكتور محسن غياض، كما يدل على نجاح ابن جني الباهر في محاولته الرائعة التوفيق بين أستاذه العظيم وصديقه الحميم.

وقد علّق على هذا الخبر الدكتور عبد الفتاح شلبي قائلاً: «ومن المهم هنا أن أُشير إلى ما ملكه ابن جني من لطف المدخل وحس التأني، فقد عرض أبياتاً على الشيخ أبي علي قصد إليها عمداً، لأنّها من ذلك النوع الذي يتأثر به الفارسي، وينتزع منه إعجابه، فالأبيات في مجموعها تحتوي على مقابلات أحوال بأحوال في صورة منطقية عامة، فهي حالت دون

(1) بغية الطلب: 2/ 666، 667، الصبح المنبي، ص 161، 162.

المزار، فشقه الوجد حتى حال نحوله دون العناق، وسواد الليل يشفع له زائراً وبياض الصُّبح يغري به منثياً، ثم هذا البيت المملوء بكلمات نحوية: سوف، قد، ثم، والإشارة الدالة على معانيها، واستغلال هذه المعاني في تصوير ما أراد الشاعر من المدح بمضاء الإرادة الهمة، وذلك منهج تفكير أبي علي النحوي المنطقي. وقد كان ابن جني ماهراً حين عرض هذه الأبيات لاسترضاء الشيخ دون سواها، وقد مكنته هذه الصحبة الطويلة لأبي علي في الحلّ والترحال - إلى ذكائه - من تفهم نفسية أبي علي، والغوص في أعماقها، والتعرف على خطراتها، فقدّم إليه المتنبي وأنزله من نفسه بأبيات مليئة بالأدوات النحوية، قريبة من صنعة النحاة، وصنعة أبي علي بوجه خاص، وكان لابن جني مندوحة عن هذا الشعر المصنوع بشعر المتنبي المطبوع⁽¹⁾.

والباحث على الرغم من تسليمه بصحة ما قاله الدكتور الفاضل من تفهم ابن جني نفسية الشيخ، فإنه لا يوافق على اتهام هذه الأبيات بأنها مصنوعة وليست مطبوعة، فإنها من الروعة والعمق بحيث تصل أعماق النفس ومسارب الحس، وما اختارها ابن جني لأنها قريبة من صنعة النحاة كما زعم، فإنه لو أراد لاختار مثل قوله:

إِذَا كَانَ مَا تُنَوِّبُهُ فِعْلاً مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ⁽²⁾

أو قوله:

حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقُ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتَفْهَامِهَا بِمَنْ⁽³⁾

ولن يعجز ذلك ابن جني الحافظ الرواية، كما أن في هذا القول وضماً لذوق أبي علي بأنه ذوق نحوي صرف، والحق أن الرجل كان يتمتع كذلك بذوق أدبي يطرب للجيد الرائع من المعاني، وفي هذا الخبر ما يدل على ذلك: يقول ابن جني: «ولقد ذاكرت به شيخنا أبا علي

(1) أبو علي الفارسي؛ د. عبد الفتاح شلبي، ص 111.

(2) ديوان المتنبي، ص 376.

(3) ديوان المتنبي، ص 155.

الحسن بن أحمد الفارسيّ بمدينة السلام ليلاً (وقد أخلينا) ولو لم يكن ذلك لم يصح فضله، وأنشدته من حفظي ميمته:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمَ

فجعل يستحسنها إلى قوله:

وَشَرُّ مَا قَنَصْتُهُ رَاحَتِي قَنَصٌ شُهْبُ الْبُرَاقِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّحْمُ

فلم يزل يستعيده مني إلى أن حفظه، وقال: ما رأيت رجلاً في معناه مثله، فلو لم يكن له إلاّ قول أبي عليّ هذا فيه لكفاه»⁽¹⁾

وهو بيت عارٍ من الصنعة النحوية كما هو واضح.

وهكذا خَبَرَ ابنُ جُنِّي المتنبّي، وَفَهِمَ شعره وروى أخباره، ونجح في إيصال شعره إلى نفس أستاذه ونفوس عشاق العربية أجمعين.

(1) الفسر: 1/ 25، 26، بيتمة الدهر: 1/ 148.

سادساً: شاعريته

على الرغم من تعدد اهتمامات ابن جني، وتبحره في علوم اللغة متناً وأصواتاً ونحواً وصرفاً وتفسيراً؛ فقد كان ذا عناية جادة بالشعر الذي هو ديوان العرب، هذه العناية لم تكن مجرد شغف به، وتفسير له واستئناس برائعة كلما عنت أمامه قضية ذوقية أو لغوية، وإنما تجلّت في مظهر إبداعي راقٍ، ولا غرو فهو الذي قد أسلمت له اللغة أزمّتها، وأسلسّت له قيادها، فإذا هي بين أنامله ليّنة مطواعاً يصرفها كيفما يشاء، ومن ثمّ رأينا له شعراً راقياً يضعه في مصاف الشعراء المجيدين؛ يقول الباخرزي: «ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له، فقد وقع عليها من ثمرات الأعراب ولا سيما في علم الإعراب، ومَنْ تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته، فوربّي أنّه كشف الغطاء عن شعر المتنبي، وما كنت أعلم أنّه ينظم القريض، أو يسيغ ذلك الجريض، حتى قرأت له مرثية في المتنبي وأولها:

غَاضَ الْقَرِيضُ وَأَوْدَتِ نُصْرَةُ الْأَدَبِ وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيٍّ دَوْحَةَ الْكُتُبِ»⁽¹⁾

وهي القصيدة الذائعة التي ألمحت إليها آنفاً.

ولابن جني قصيدة أخرى طويلة أورد منها ياقوت بضعة وستين بيتاً، افتتحها ابن جني بالحديث عن أدبه وحلاوته، ذلك الأدب الرائع الذي هو مفتخره الدائم؛ قائلاً:⁽²⁾

وَحَلُّوْ شَمَائِلِ الْأَدَبِ مُنِيفَ مَرَاتِبِ الْحَسَبِ
أَخِي فَخْرٍ مَفَاخِرُهُ عَقَائِلُ عُقْلَةِ الْأَدَبِ

ثم تطرّق إلى معاناته في البحث، وسهره بين صرير الأقلام، وجريه وراء ثمرات الأفهام، حتى يدنو منه القصي، ويدين له العصي، ثم يسلق خصومه بلسانٍ حاد حتى يلزموا مكانهم، ويلجهم الحُجّة في أفواههم، وهي التي طالما قعقت كالطبل عند نقده، قائلاً:⁽³⁾

(1) دمية القصر: 3/ 1481، وانظر التعليق على تحريف كلمة ثمرات الأعراب؛ ص 79.

(2) معجم الأدباء: 3/ 470. منيف: عال، عقائل: جمع عقيلة؛ وهي الفتاة الكريمة، عقلة: جبل يعقل به.

(3) معجم الأدباء: 3/ 471. مُسَاجِلِي: مَنْ يَتَحَدَّثَانِي، هَافٍ لَغَبٍ: نَاقَةٌ ضَعِيفَةٌ، مَبَادِهَتِي: مَنَاطِرَتِي فِي الْبَدِيهَةِ.

تَرَكْتُ مُسَاجِلِي أَدَبِي طُوالَ الدَّهْرِ فِي تَعَبٍ
 إِذَا أَجْرُوا إِلَى أَمَدٍ فَقُلْ فِي هَافَةٍ لَغَبٍ
 وَإِنْ رَأَوْا مُبَادَهَتِي سَبَقْتُ وَأُوطِئُوا عَقِي
 وَكَيْفَ يَرُومُ مَنَزَلَتِي نَزِيلُ حَبَائِثِ الثُّرَبِ
 وَهَلْ يَسْمُو لِقَارِعَتِي خَفِيزُ الْخَدِّ دُو حَدَبِ
 وَهَلْ يَنْتَاطُ بِي سَبَبًا ضَعِيفُ مَقَاعِدِ السَّبَبِ

ثم حدثه تقواه إلى شكر مولاه الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، من فهم رائع وصيت ذائع، حتى أصبح علماً يقوم علمه مقام النسب الأصيل والمحتد النبيل، بل يقوم له مقام الولد - على الرغم من أن له ثلاثة من الأولاد الفضلاء: على وعالٍ وعلاء -، حيث إن كتبه تبقى بعد فناء جسده، ويبدو أنه قال هذه القصيدة في أواخر حياته، فرأينا يعزف على وتر العودة إلى الله متذكراً المثل القريب بين يديه؛ قائلاً⁽¹⁾ :

إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ غَدًا وَعِنْدَ اللَّهِ مُطَّلَبِي
 لَهُ ظَهْرِي وَمُعْتَمَلِي وَمُنَجَّهِي وَمُنْقَلَبِي

ثم عاد إلى ذكر حساده الذين يبدو أنهم كانوا من تلاميذه، الذين صنعهم على عينه، ثم جازوه كما يجزى سننار، وقلبوا له ظهر المجن بعدما استدّت سواعدهم - ثم ختم قصيدته بهذه الحكمة الرائعة⁽²⁾ :

وَلَكِنَّ الدَّوَاءَ عَلَى كَرَاهَتِهِ شِفَا الْوَصَبِ

وليس معنى ذلك أن شعر ابن جني قد انحصر في هذه الدائرة الضيقة من الرثاء والفخر ورد دعاوى الخصوم، فإن للرجل شعراً يفيض رقةً وحناناً؛ فيقول:⁽³⁾

(1) معجم الأدباء: 3 / 473.

(2) معجم الأدباء: 3 / 474. الوصب: الوجع والمرض.

(3) معجم الأدباء: 3 / 467.

تَجَبَّبُ أَوْ تَدَرَّعُ أَوْ تَقَبَّبَا فَلَا وَاللَّهِ لَا أَزْدَادُ حُبًّا
أَخَذْتُ بَعْضَ حُبِّكَ كُلِّ قَلْبِي فَإِنْ رُمْتَ الْمَزِيدَ فَهَاتِ قَلْبًا

فإذا أردنا الحكم على شعره، فإنه ينبغي أن نضع في اعتبارنا أنه ليس شاعرًا في المقام الأول، وإنما هو لغويٌّ يعالج الشعر، ولم تغلب عليه صناعته، ولذا أدرجه الباخريزي في باب عقده لقوم «ليس لهم في دواوين الشعراء رسم، ولا في قوانين الشعراء اسم».⁽¹⁾

وقال عنه الثعالبي: «وكان الشعر أقلَّ خلاله، لعظم قدره وارتفاع حاله».⁽²⁾

ومع ذلك فإننا نجد جُلَّ النقاد أثنوا عليه كل الثناء، إذا راقهم شعره ولذَّ لهم قريضه، ولم يشذ إلا ابن مأكولا الذي قال: «كان نحوياً مجرداً وله شعر بارد».⁽³⁾

وعز الدين بن الأثير المؤرخ يقول: «وله شعر بارد».⁽⁴⁾

وضياء الدين بن الأثير البلاغي يقول: «ومن يخفى عنه قُبْحُ هذا الشعر، ولا يعلم أنه قد استهدف به للعائب والطاعن؟».⁽⁵⁾

وعلى كلِّ فهؤلاء الثلاثة من المؤرخين لا من النقاد، بل إنَّ عادة ابن الأثير التهوين من شأن الآخرين، وإصدار الأحكام القاسية ضدهم لما تمتلئ به نفوسهم من غرور وكبرياء.

يقول الدكتور أسعد طلس معلقاً على حكم عزَّ الدين بن الأثير المؤرخ: «ولا ندري على ماذا اعتمد ابن الأثير في حكمه الظالم هذا؟ وليس غريباً أن يصدر ابن الأثير هذا الحكم القاسي على ابن جني، فإنه معروف باستهائته بأقوال الناس، وباستخفافه بآثارهم وكتابه مملوء بأمثال هذا، محشوٌّ بالدعاوى الكثيرة والغرور».⁽⁶⁾

(1) دمية القصر: 3 / 1479.

(2) يتيمة الدهر: 1 / 137.

(3) الإكمال في رفع الارتباب: 2 / 585.

(4) الكامل في التاريخ: 9 / 179.

(5) الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدَّهَّان؛ ص 17.

(6) أبو الفتح بن جني - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م 3، ج 4، ص 62.

أما الذين أثنوا عليه فكانوا من الكثرة بمكان⁽¹⁾، لكننا لا نؤمن بأوصافهم الطيبة كل الإيوان، ونحن نعلم كثيراً من المترجمين اعتادوا وصف الشعراء والعلماء بأوصاف مسجوعة، ربما تتكرر مع الجميع، فابن جني لم يكن الشعر مجاله الأول، وإنما ضرب فيه بسهم فأصاب، ولو أنه أخلص نفسه للشعر لكان واحداً من خيرة الشعراء في القرن الرابع الهجري.

وفي تقديره أن الذي هوّن من شأن شعره أمران:

- أولهما: إغرابه في شعره، فهو لغويّ يستظهر متن اللغة دون عُسر، وغريبها في ذهنه مأنوس، لطول اطلاعه عليه واثتناسه به، ثم هو مضروبٌ به المثل في التفاحش في تصانيفه، والذي يقرأ كتبه يدرك مدى قوة أسلوبه في كتابته، فما بالك بالشعر الذي تتوجه إليه العناية، والسعي نحو التنقيح؟

ولذا وجدناه في شعره يستعمل الغريب بكثرة، بحيث لا تسلم الكلمات مقادها إلا بعد طول بحث؛ يقول مثلاً في رثائه المتنبي⁽²⁾:

(1) انظر: وفيات الأعيان: 3/ 246، شذرات الذهب: 3/ 140، المنتظم: 7/ 220، تاريخ بغداد: 311/ 11، روضات الجنات؛ ص 446.

(2) معجم الأدباء: 3/ 464، 465، دمية القصر: 3/ 1482 وما بعدها، الوافي بالوفيات: 6/ 342، 343. الهواجل: جمع هوجل؛ وهي الصحراء، التصدير: الحزام الأمامي للبعير، الحقب: الحزام الخلفي له، وكونها جائلة التصدير والحقب كناية عن ضمور بطنها وقوتها، قباء: ضامرة البطن، خوصاء: غائرة العينين، علاقتها: أدنى سيرها، عريكتها: سنامها، الحلس: كساء يُوضع تحت الإكاف، القتب: الإكاف نفسه، الطبا: أطراف السيوف، توكافهن: ما ينزل منهن كالطر، القنا: الرماح، الزغف: الدروع، اليلب: الترس، الجحافل: الجيوش، جاحم الحرب: شدة القتل في المعترك، الشَّهَب: البياض... وقد ضُبِطت في معجم الأدباء بضميتين (الشَّهَب) وقال المحقق: يريد من بعد غياب الكواكب في البكور، ولا معنى لما قال، ولعلّ الصواب ما ذكرت، فالمعنى: أن تلك الخيول غذت وهي بياض شهباء، فلما خاضت غمار القتال عادت حمرة السربال من كثرة تضرّجها بالدم، المناهل: موارد المياه، القرب: الاقتراب من الماء بحيث يكون بين الطالب وبين الماء يوم واحد، القساطل: جمع قسطل؛ وهو غبار المعركة، الحزون: الأرض الصُّلبة، تعتم الحزون بها: أي يعلوها كالعمامة، الضَّغْم: العَض، الحَرَب: الغاضب، تُمَيس: تبختر، أبراد القُشْب: ثيابها الجديدة.

مَنْ لِلْهَوَاجِلِ يُحْيِي مَيِّتَ أَرْسِمِهَا
 قَبَاءَ خَوْصَاءَ مُحَمَّدٍ عَلَاتِهَا
 أَمْ مَنْ لِبَيْضِ الظُّبَا تَوَكَّاهُنَّ دَمٌ
 أَمْ لِلْجَحَافِلِ يُذَكِّي جَمْرَ جَاحِمِهَا
 أَمْ لِلْمَحَافِلِ إِذْ تَبْدُو لَتَعْمُرَهَا
 أَمْ لِلصَّوَاهِلِ مُحَمَّرًا سَرَابِلُهَا
 أَمْ لِلْمَنَاهِلِ وَالظَّلْمَاءِ عَاكِفَةٌ
 أَمْ لِلْقَاسِطِلِ تَعْتِمُ الْحُزُونُ بِهَا
 أَمْ لِلْمُلُوكِ يُحْلِيهَا وَيُلْبِسُهَا
 كُلُّ جَائِلَةِ التَّصْدِيرِ وَالْحَقَبِ؟
 تَبُّو عَرِيكَتَهَا بِالْحَلْسِ وَالْقَتَبِ؟
 أَمْ مَنْ لِسُمْرِ الْقَنَا وَالرَّغْفِ وَالْيَلْبِ؟
 حَتَّى يُقَرَّبَهَا مِنْ جَاحِمِ اللَّهَبِ؟
 بِالنَّظْمِ وَالنُّثْرِ وَالْأَمْثَالِ وَالْخُطَبِ؟
 مِنْ بَعْدِ مَا غَرَبَتْ مَعْرِفَةُ الشَّهَبِ؟
 يُوَاوِلُ الْكَرَّ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ؟
 أَمْ مَنْ لِيَصْغَمِ الْهَزْبِ الصَّيْغِمِ الْحَرَبِ؟
 حَتَّى تَمَاسَيْسَ فِي أَبْرَادِهَا الْقُشْبِ؟

وهي أبيات كما نرى ملأى بالغريب، تلك الغرابة التي من شأنها أن تضع حُجباً لغويةً بين الشاعر والمتلقي، وافتضاض تلك الحُجب لا يعود بكبير فائدة على المتلقي شأن الحُجب الفنية التي توصل إلى الدرّ الثمين بعد كشف المخبوء الدفين، بحيث توازي الثمرة التعب الذي بُذل من أجل الحصول عليها، فيكون المرء أحرص عليها وأشغف بها، أمّا تلك الأستار الكثيفة من غريب اللغة فإنّها تعيب الشعر - يقول أبو هلال العسكري: «والشعر كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلائم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيضاً... وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكّد، ويستفصحوه إذا وجدوا ألفاظه كَرَّةً غليظةً، وجاسيةً غريبةً، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذاباً، وسهلاً حلواً؛ ولم يعلموا أنّ السهل أمتع جانباً، وأحسن موقعاً، وأعذب مستمعاً... (ثم يروى بسنده) قيل للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك؟ فقال: ذاك عيٌّ في زماني، وتكلّف مني لو قلته، وقد رُزقت طبعاً واتساعاً في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ولا يحتاج إلى تفسير»⁽¹⁾.

(1) الصناعتين؛ ص 66، 67.

إنَّها دعوة لأن يتشعَّح الشعر بوشاح من الدماء والرَّقة، بحيث يصل السامع إلى ما يريد الشاعر من أقصر طريق، فإن أبى الشاعر إلَّا المراوغة فلتكن مراوغة فنية تحرك العقل طلباً للمعنى المكنون لا تحرك اليد طلباً للقاموس، ولكنَّ النزعة اللغويَّة غلبت بغلاظتها على صاحبنا، فقلَّ مقدار شعره.

- ثانيهما: النزعة العقليَّة التي تُجَلِّل كثيراً من شعره، فتراه يقوم على التعليل والتفسير والتقابل واصطناع النَّسب العقليَّة التي تخاطب العقل قبل مخاطبة الوجدان، والشعر في المقام الأول تخيل وتصوير، يطير بالشاعر والقارئ معاً في عالم الخيال، ويطوف بهما في آفاق الممكن والمحال، وليس تلك القِسَم العقليَّة الجامدة، ورحم الله القاضي الجرجاني وهو يقول: «والشعر لا يَجَبُّ إلى النفوس بالنظر والمحاكاة، ولا يُحَلَّى في الصدور بالجدال والمقايسة، وإنَّما يعطفها عليه القبول والطلاوة، ويقربه منها الرونق والحلاوة، وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون حلواً مقبولاً، ويكون جيداً وثيقاً وإن لم يكن لطيفاً رقيقاً».⁽¹⁾

وقد وقع ابن جني فريسة لمثل هذه الأقيسة والمجادلات العقلية؛ كقوله في غزله:⁽²⁾

غَزَالَ غَيْرٌ وَحْشِيٌّ	حَكَى الْوَحْشِيُّ مُقْلَتَهُ
رَأَاهُ الْوَرْدُ يَجْنِي الْوَرْدَ	(م) فَاسْتَكْسَاهُ حُلَّتَهُ
وَشَمَّ بِأَنْفِهِ الرِّيحَانَ	(م) فَاسْتَهْدَاهُ زَهْرَتَهُ
وَذَاقَتْ رِيحَهُ الصَّهْبَاءُ	(م) فَاخْتَلَسَتْهُ نَكْهَتَهُ

فالقارئ يحسُّ أنَّ كل بيت مكوَّن من أمرين، ثانيهما مرَّتَّب على الأول ترتيباً عقلياً يُشبه إلى حدٍّ بعيد تلك الأقيسة المنطقيَّة والتعليلات النحويَّة، ولا شك أنَّها تسربت إلى شعر ابن جني بسبب غلبة النحو واللغة عليه، والشعر ينبغي أن يبتعد قليلاً أو كثيراً عن مثل هذا المجادلات العلمية؛ ولذا ردَّ أصحاب البُخْتري على أصحاب أبي تمام بأنَّ «الشعر ليس علته العلم، ولو

(1) الوساطة؛ ص 100.

(2) معجم الأدباء: 3/ 466.

كان علته العلم لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم»⁽¹⁾.

ومهما يكن من أمر شعره فالذي لا يختلف عليه هو أن للرجل نصيباً من الشاعرية قلّ أو كثر، وذلك بدوره ينعكس على النقد.

نعم؛ إنهما ملكتان منفصلتان؛ حيث يقول أبو أحمد العسكري: «يقول الشعر الجيد مَنْ ليس له المعرفة بنقده، وقد يميزه من لا يقوله، وقد قيل لابن المقفع: لم لا تقول الشعر مع علمك به؟ فقال: أنا كالمسنّ أشحد ولا أقطع»⁽²⁾.

ولكنّ الذي لا شك فيه أنّ معالجة قرض الشعر تمنح الناقد مفاتيح المعاني، وتضع يده على الطريق المؤدي إليها، لأنّه سبر مداخل المعاني ومخارجها ممارسة ومدارسة، بل إنّ النقد نشأ أول الأمر في أحضان الشعراء - يقول المرحوم طه إبراهيم: «إنّ هذا الشعر مرّ بضروب كثيرة من التهذيب حتى بلغ ذلك الإتقان الذي نجده عليه في أواخر العصر الجاهلي، فبين الحُداء الذي يظن أنّه نواة للشعر العربي وبين القصيدة المحكمة عصرٌ طويل للنقد الأدبيّ، ألحّ على الشعر بالإصلاح والتهذيب حتى انتهى به إلى الصحة وإلى الجودة والإحكام، فلم يكن طفرةً أن يهتدي العربيّ لوحدة الرويّ في القصيدة، ولا لوحدة حركة الرويّ، ولا للتصريح في أولها، ولا لافتتاحها بالنسيب والوقوف على الأطلال، لم يكن طفرة أن يعرف العرب كل تلك الأصول الشعرية في القصيدة، وكل تلك المواصفات في ابتداءاته مثلاً، وإنّما عرف ذلك كله بعد تجارب، وبعد إصلاح وتهذيب، وهذا التهذيب هو النقد الأدبيّ»⁽³⁾.

فهذا التنقيح أو التحكيك أو التنخل إنّ هو إلا نقد خالص، مما يدل على أنّ الشاعر ناقد بفطرته، وعلى أنّ ممارسة الشعر تحلّ كثيراً من شفرات النص، وتسهّل طريق الوصول الفاهم إلى ما في بطن الشاعر، وتجعل الحكم أقرب إلى الموضوعية والإنصاف.

(1) الموازنة؛ للأمدى: 25 / 1.

(2) المصون في الأدب، ص 5، 6.

(3) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 11.